

د. إبراهيم بيضون

عبد الله بن سبأ

اشكالية النص و الدور الاسطورية



دار المؤرخ العربي

من مقدمة الكتاب

ويبقى في النهاية أن هذا الكتاب
لم يكن الهدف منه ، الدخول في
جدل حول الداعية السبني ، سواء
كان شخصية واقعية أم اسطورية ،
وإنما هو محاولة قراءة جديدة ،
حدثاً ودلالة، داخل النص التاريخي
وزماته ، ذلك الذي تبقى العلاقة
معه هي الأساس ، وليست شخصية
"البطل" التي تصبح ثانوية في ركوب
"الخطر" ، حيث لا تنتهي معاناة المؤرخ .

نورالدين

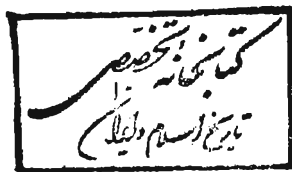
نورالدين

٤

٥

٥٣

د. إبراهيم بيضون



عبد الله بن سبأ

اشكالية النص و الدور الاسطورية

دار المؤرخ العربي

مكتبة الحقوق محفوظة ومستقلة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

دار المورخ العربي

بيروت - لبنان - صرّ: ٢٤/٢٤ - هاتف: ٨٢٠٨٤٣

خليوي: ٨٢٠٨٩٠/٣ - فاكس: ٦٠١٠١٩

الإهداء

إلى الذين رأوا الحقيقة بقلوبهم
وسطع نورها في العقل
الذين شهروا سيفاً تحت لوائها
وغمسوا في حبرها قلماً
أرفع إلى مجد كلمتهم هذا الكتاب .

جدول الخطأ والصواب لكتاب عبد الله بن سبأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	١٣	قبله	قبل
١٥	٦	ذكائه	ذكاءه
٢٦	١٠	أبو	أبوا
٢٧	٤ - ٥	هذا الطبري	هذا المؤرخ
٢٨	٥	على غير مألوف	على نحو غير مألوف
٣١	١٤	وفقاً لما	وفق ما
٣٣	١٥	ضالع	ضالعاً
٣٤	٤	ومتحفزاً	متحفزاً
٣٦	١	هذا نظرحه	هذا سؤال نظرحه
٤٠	٧	تبدي	تبدى
٤١	١٧	فأذا	فإذا
٤٣	١٦	فأن	فإن
٤٨	٦	إذ أن كلاهما	إذ كلاهما
٤٨	١٥	وستعرض	وسنعرض
٤٩	٤	ملاءماً	ملائماً
٤٩	٥	مهياً	مهياً
٥٥	١٤	التنبؤات	التنبؤات
٥٧	٩	فأنه	فإنه

٦٣	٥	فإذا	فإذا
٦٥	٤	فأنه	فإنه
٦٧	١٢	المليئ	المليء
٦٧	١٤	طريقة	طريقه
٧٢	٧	بنطوي	ينطوي
٧٣	١٠	بن	ابن
٧٥	١٢	فأن	فإن
٧٨	١٣	الهاديء	الهادئ
٨٣	١٥	بن	إبن
٨٣	١٦	يقولن	يقول
٨٦	٤	فيه الرواية	في الرواية
٨٦	١٦	هذه	هذه
٨٩	١٣	واحد	واحدة
٩١	٧	فأنه	فإنه
٩١	١٤	أهاله	الهالة
٩٣	٧	شيأ	شيئاً
٩٣	٧	الوصية الوصية	الوصية
٩٥	٣	ما ينم هذا الموقف	ما ينم عن هذا الموقف
٩٧	٥	عن	عنه
٩٨	٨	محرضاً عن	محرضاً على
١٠٠	١٠	انظرونها	انظروائهم

١٠١	٤	يفوت	يفوت
١٠١	٧	ولآه	ولآه
١٠١	١٦	اللائحة	اللائحة
١٠٢	٧	مما	مما
١٠٤	١٤	ابن	بن
١٠٥	١	هذا	هذه
١٠٥	١٣	تشطياته	تشطياته
١٠٦	١٢	الحقيقة	الحقيقة
١٠٨	١٠	ظهرو	ظهروا
١٠٨	١٤	طوئفي	ضوائفي
١١٠	٥	فأنه	فإنه
١١٢	٣	سلطه سياسة	سلطة سياسية
١١٢	١١	بالأهتمام	بالإهتمام
١١٢	١٣	حولة	حوله
١١٢	١٦	شئ	شيء
١١٦	٦	حجمة	حجمه
١١٧	١٥	فُيُنْتَظَر	فُيُنْظَر
١١٨	١	فأنه	فإنه
١١٨	١٠	فأن	فإن

مقدمة

كان وقت غير قصير يمر ، و التاريخ لا يشكل سوى هامش في اهتمام النخبة التي دأبت على دراسة الإسلام قرآناً و حديثاً ، دون أن تكون السيرة النبوية مندرجة حينذاك في أعماله ، بقدر ما كانت دوافعها دينية ، تتوخى في الأساس إبراز شخصية الرسول النموذج و القدوة في حياة المسلمين . ولم يكن ذلك ناجماً عن قصور في الوعي التاريخي خارج هذا السياق ، و لكن النخبة تجنّبت في ذلك الوقت ، الخوض على نطاق واسع في أخبار ليست لها هالة "الأحاديث" و لا تتمتع بدقتها ، و بالتالي تفتقد إلى ضوابطها و كل ما يجعلها خارج دائرة الشك لدى "المثقف" الملتزم بالإسلام .

على أن التاريخ و قد أخذ يستقل بصورة ما عن علوم الدين ، دون أن يتحرر من رؤيتها و منهاجها ، ظلت صورته يكتنفها الغموض ، ربما لأن حرية المؤرخ في تتبع أخباره لم تكن متاحة على النحو الذي تيسر له من قبله إبان اهتمامه بعلوم القرآن و الحديث . بالإضافة إلى ذلك فإن مهمته في هذا المجال ليست خالية من الخطر ، انطلاقاً من حالة يجسدها

التاريخ أو يتفرد بها ، وهي التي ربما كان ابن خلدون من أبرز المغامرين على ساحتها ، إذا توقفنا عند وصف ((لاكوست)) له بأنه "خالق علم أساسي و خطر ، ألا هو التاريخ"^١ . فما بين الحقيقة و نقيضها قد لا تكون هوة عميقة تفصل بينهما ، وهي مسافة نسبية في مطلق الأحوال . على أن الصراع يبقى قائماً و المؤرخ لا بد له من الخوض فيه ، ليس كطرف على مساحته ، ولكن محاولة البحث الدائبة عن الحقيقة ، تبقى في طليعة همومه ، و هي التي تقوده وراء الضوء في دهاليز النص التاريخي وشعابه ، هذه الحقيقة التي رأى ابن خلدون نفسه أنها قوة "لا يقاوم" سلطانها^٢ ، أما نقيضها فهو باطل " يقذف بشهاب النظر شيطانه"^٣ .

ولكن ابن خلدون - وقوله يجسد رؤية مثالية في الفكر التاريخي - قد يكون من الصعب تعميم قوله على مساحة الحدث كافة ، برغم المرجعية التي تبقى للعقل . فالخطر الذي تهيب المؤرخون الأوائل الاقتراب منه ، ليس مثله الذي يعيق المؤرخ اليوم ، أو يتردد في ركوبه لاستشراف ما أحجم الأسلاف عمداً عن ذكره ، أولئك الذين دونوا أخبارهم و كثير منها كان ما يزال ساخناً ، مما جعلهم في بعض الاحيان طرفاً فيها ،

^١ العلامة ابن خلدون ص ٢١٢

^٢ مقدمة ابن خلدون ص ٣

^٣ المكان نفسه

منحازين للمواقع التي حملوا رؤيتها بوعيهم و إحساسهم، و دائماً في ظلّ حركة تواصلية مع الماضي الحاضر جلياً في زمانهم .

خلافاً لذلك فإن المؤرخ الموضوعي ، ليس معنياً بالتحوال وراء حدود النص "البارد" أو الاحتكاك بمشاعر صاحبه، ولكن من صلب مهمته ، تفكيك عناصر هذا النص من دون العبث فيه ، و الوصول من خلال قراءة نقديه له إلى رؤية أكثر مقاربة للحقيقة التاريخية . فلا سبيل في النتيجة سوى اقتحام الخطر و هذا من طبيعة المؤرخ و صميم دوره ، إلا إذا كان عازفاً عن الإبحار مكتفياً بالمكوث على الضفاف . "لا توقف إذاً - كما قال الصديق ، الكاتب ، المبدع طلال سلمان ^١ - لا محطة نهائية له (المؤرخ). الجزئيات فضاء بلا نهايات ، و عليك إعادة تجميع المتماثل والمتناقض لتكوين صورة أوصور تعيد تجسيد اللحظة و النظام ^٢ " .

و لعله من هذا الباب بالذات يصحّ الدخول في موضوعة عبد الله بن سبأ ، المتداخلة في خطوط الحدث - الفتنة، الأشدّ خطورة في مسار التاريخ الإسلامي. و صاحب هذه الشخصية ، و إن تجنّب الدارسون حتى وقت متأخر ، البحث مباشرة في ملابسات دورها و مؤثراتها الفعلية في متغيرات المرحلة ، تفرّد بذكره إخباري معروف هو سيف بن

^١ صاحب ورئيس تحرير جريدة السفير

^٢ جريدة السفير (٢٣ / ٢ / ١٩٩٦)

عمر التميمي ، دون أن يأخذ بروايته سوى مؤرخ من الكبار المكرسين ، وهو أبو جعفر الطبري . ومن هنا تبدأ فصول أكثر المسائل تعقيداً في هذا التاريخ ، إذ أن صاحب " الرسل و الملوك " المتميز بحيطته ، وهو الفقيه أساساً ، أورد هذه الرواية دونما تشكيك أو ما يقاربه بها ، مخالفاً منا لجأ إليه أحياناً قليلة في تاريخه الطويل . و لعل الباحث لا يجد من هذا المنظور سوى التعامل مع نص قائم ، اعتمده مؤرخ رصين مثل الطبري ، ولكنه انطلاقاً من نقاط ضعف بارزة في الرواية ، تخالجه الشكوك في تفاصيلها قاطبة ، حيث الطريق اليها ملئ بالألغام ، و السير في شعابها محفوف بـ "الخطر" .

و على الرغم من دخولي مُبكراً و على مستوى مكثف ، حلبة هذه المرحلة ، فقد أعرضت عن التوغل في الموضوع " السبئية " ، انطلاقاً من خلل واضح في الرواية وعدم اتساق مع المناخ العام المندرجة فيه . و لكن حدث مؤخراً أن مجلة فكرية جديدة ، كلفني المشرفون عليها بدراسة في هذا الموضوع ، فلم أر بداً - وقد استجبت للأمر- أن أخوض فيه و أستعيد قراءته دون أن تغيب عن البال صعوبة المهمة و دقتها وخطورتها .

وبالعودة إلى مصدر الرواية في تاريخ الطبري ، وجدتني مصطدماً بضحالة المادة التي جاءت مبعثرة في سياق السنوات الثلاثة و الثلاثين

والخامسة و الثلاثين للهجرة . و اختصارها أن يهودياً من صنعاء (اليمن)،اعتنق الإسلام في هذا العهد و أخذ يدعو لرجعة النبي و الوصية لعلّي ، منتقداً بقسوة الخليفة و مندداً بسياسة الانحراف لإدارته . فالتقى من هذا المنطلق بشخصية صحابية (أبو ذرّ الغفاري) ، كانت تقوم بحركة في هذا الاتجاه ونسبت إليه (إبن سبأ) الرواية ، تشكيل دعوة سرية امتدت من البصرة إلى الكوفة ،فالشام و مصر حيث لمخترط فيها عدد من كبار المسلمين كان بينهم أبو ذرّ و آخرون من الصحابة والقيادات البارزة في المرحلة .

هذه الرواية التي لم يشارك الطبري فيها معاصروه من المؤرخين المكرّسين ، إنما يتجلى ضعفها الأساسي في هذا التفرد، علماً بأن هؤلاء رروا سيرة عثمان بتفاصيلها ، دون أن يكون ما ذكره "المسعودي" عن ظهور يهودي مشعوذ في إحدى قرى الكوفة له علاقة بالحركة السبئية. وفي ضوء ذلك ، فإن المقارنة التي هي من أبرز العناصر في الكتابة التاريخية تصبح معدومة في مثل هذا الموضوع حتى لدى الطبري نفسه الذي من عادته إيراد عدة روايات عن الحدث الواحد . و إذا استثنينا ابن الأثير -وهو مؤرخ متأخر ، نقل رواياته حتى نهاية القرن الثالث عن الطبري - فإن المصادر التاريخية تجاهلت رواية سيف هذه، فيما المصادر "الفقهية"

اقتبستها أيضاً من هذا المكان ، ولكن في سياق التصنيف للفرق الدينية،
ومنها السبئية منسوبة إلى مؤسسها عبد الله بن سبأ.

وكانت هذه الرواية ما تزال متداولة من جانب فريق يقبلها من
المؤرخين ، انطلاقاً من رؤيته الدينية التي ربما تتوحد فيها النظرة إلى الخليفة
" الشرعي " مع " شرعية " النص التاريخي، وفريق آخر له اجتهاده في النظرة
إلى الاثنين ، و ينطلق من ثوابت أساسية في هذا المجال. و لم تخرج إلى
مستوى الجدل إلا في النصف الأول من هذا القرن ، حين تعرّض لها
الكاتب الكبير طه حسين في دراسته القيمة " الفتنة الكبرى ". ولعله هو
الذي كان ابن خلدون موضوعاً لأطروحته في الدكتوراه و استنار بفكره
في اعتماد العقل طريقاً إلى الحقيقة ، كانت له ريادته في إعادة قراءة
الحركة السبئية و إخضاع صاحبها أو دوره لعملية نقد صارمة أوصلته في
النهاية إلى الشك بوجوده ، فاتحاً بذلك اليباب أمام قراءات مشابهة إلا
أنها لم تبلغ مستوى قراءته في الملاحظة و التحليل و الاستنتاج.

و الواقع أن وقتاً غير قصير مرّ على هذه الدراسة قبل أن تُحدث
تغييراً فعلياً في منهج الكتابات التاريخية حول هذه المسألة، إذ بقيت النظرة
بصددها محكومة بالتراكم القائم على الرواية . و لكنها أخذت في ستينات
القرن تحرك الحوافز لإعادة القراءة في هذا الموضوع ، ابتداءً بالمؤرخ السيد
مرتضى العسكري الذي دفعه الاهتمام به إلى إجراء تقويم شامل لمجمل

روايات سيف بن عمر ، و منها روايته عن عبد الله بن سبأ في كتاب يحمل اسم الأخير و " أسطوره " . ولا نريد استباق الأمور هنا للحديث عما أضافه العسكري إلى هذه المسألة ، تاركين ذلك إلى حينه في كتابنا . على أن الدراسة التي وضعها مؤخراً هشام جعيط عن " الفتنة " ، وما انطوت عليه من نظرة - على اقتضاها - إلى الموضوعة السبئية ، ما يجدر التنويه به ، وهي صادرة عن قراءة نقدية وواعية .

ويبقى في النهاية أن هذا الكتاب لم يكن الهدف منه الدخول في جدل حول الداعية السبئية ، سواء كان شخصية واقعية أم اسطورية ، وإنما هو محاولة قراءة جديدة ، حدثاً ودلالة ، داخل النص التاريخي وزمانه ، ذلك الذي تبقى العلاقة معه هي الأساس ، وليست شخصية " البطل " التي تصبح ثانوية في ركوب " الخطر " ، حيث لا تنتهي معاناة المؤرخ .

بيروت في ٤ / ٣ / ١٩٩٦

القسم الأول

عبد الله بن سبأ

الحدث والدلالة

الاسرائيليات

تندرج حركة عبد الله بن سبأ فيما يُعرف بالاسرائيليات في التاريخ الإسلامي ، و التي كانت تجلياتها في يثرب ، حيث تداول اليهود - أو قيل ذلك - أخباراً عن ظهور قريب لني ، و أخذوا يتوعدونه و يهدّدون من يعتقد به . فكانوا - حسب رواية الطبري - إذا جرى حديث بينهم و بين العرب (الأوس والخزرج) قالوا لهم : إن نبياً قد أضل زمانه ، تتبّع و نقتلكم معه قتل عاد و إرم ^١ .

ولعل حديث الاسرائيليات كان أحد الموضوعات البارزة التي أولاها عناية كبيرة الاخباريون المسلمون إلى جانب اهتمامهم بسيرة الرسول . فكان من روّادها كعب الأخبار و هو عالم كبير من يهود اليمن عاصر دعوة الإسلام و لكنه تأخر في الانضمام اليها حتى خلافة أبي بكر ^٢ ، أي بعد رسوخ هذا الدين و انتشاره على مساحة واسعة خارج شبه الجزيرة العربية ، و أصبح حينذاك مرجعاً للأخبار لما قبل الإسلام . فقد تتبع بعض هؤلاء الاخباريين بشغف الفترة السابقة على الإسلام ، في محاولة منهم

^١ - تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٥٤

^٢ سهيل زكار ، التأريخ عند العرب ص ٣٤

لربط الحاضر بالماضي ، وما يمكن أن تضيفه في التعرف على الظروف والعوامل المؤثرة في العقيدة ، المتصلة جذورها بالحنيفية.

كان كعب الأحبار - وقد ظلّ مشكوكاً بإسلامه - أوّل المروّجين للإسرائيليات على نطاق واسع ، مما جعل الأخيرة تتخذ ذلك الحيز في الروايات التاريخية العربية . وثمة من يرى أنه مجرد انتهازي ركب موجة الإسلام ، و لم ينفك مستخدماً ذكائه للطعن في "سلفية" الدين وإظهار ما لليهود من معرفة واسعة بالغيبات . حدث ذلك أو شيء منه في عهد عمر بن الخطاب ، الذي تنبّه لما يضمّره اليهودي المخضرم ، فيروي الطبري أن الخليفة عندما أراد إقامة المسجد في بيت المقدس بعد فتحها ، استدعى كعباً وسأله : " أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال إلى الصخرة ، فقال (عمر) ضاهيت والله اليهودية يا كعب ... بل نجعل قبلته صدره .. فإنّا لم نؤمر بالصخرة ولكن أمرنا بالكعبة " .

وعندما توعد أبو لؤلؤة الخليفة عمر ، كان كعب حاضراً بدوره "المشبه" مضيفاً على الحادثة مسحة "توراتية" تذكّرنا بتلك الأجواء التي سبقت هجرة النبي إلى المدينة . وفي هذا السياق يروي الطبري ، أن كعباً جاء الخليفة في اليوم التالي فقال له " يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في

^١ السلفية هنا بمعنى الابداع و الريادة . انظر لسان العرب ج ٩ ص ١٥٨

^٢ الطبري ج ٣ ص ٦١١

ثلاثة أيام. قال عمر : و ما يدريك ؟ قال اجدته في كتاب الله عز و جل التوراة : قال عمر: الله أنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال اللهم لا، ولكني أجد صفتك و حليتك و أنه قد فنى أجلك^١ . و على الرغم من أن احداً لم يأخذ بصحة أقوال كعب في المدينة ، فإنه على ما يبدو لم يكن بعيداً عن التهمة بأنه ضالع بصورة ما في عملية الاغتيال ، مما دفعه ربما بسبب ذلك الى الخروج من الحجاز و الانزواء في حمص^٢ . ولكن الملف برمته طوي بأمر من الخليفة الجديد ، لأن التحقيق لو فُتح لطال شخصيات كانت لها مصلحة في غياب الخليفة القوي ، و هي التي ألمح اليها عبيد الله بن عمر ، بعد قتله ثلاثة^٣ اعتبرهم ضالعين مباشرة في الاغتيال قائلاً: " والله لاقتلن رجالاً ممن شرك في دم أبي، " يعرض بالمهاجرين و الأنصار " حسب الرواية التاريخية^٤ . و كان علي قد طالب بإجراء محاكمة للمتهمين ، بمن فيهم ابن الخليفة السابق ، ألا إن ذلك لقي معارضة من " بعض المهاجرين " فضلاً عن عثمان الذي حسم الأمر على الطريقة " الأموية " ، حين تحمل دية القتلى من ماله الخاص^٥ .

^١ الطبري ج ٤ ص ١٩١

^٢ زكار المرجع السابق ص ٣٤

^٣ جفينة و الهرمزان و انية أي لؤلؤة . الطبري ج ٤ ص ٢٣٩

^٤ المكان نفسه

^٥ الطبري ج ٤ ص ٢٣٩

ينطوي كعب الأخبار بعيداً عن الاضواء في "منفاه" ، ولكن مدرسته ظلت قائمة تجذب إليها أولئك الذين أغراهم الدخول إلى عالم الأساطير و البحث في التاريخ المجهول لما قبل الإسلام . و قبل موته نُسب له القول في مجال التنبؤ : "لن يملك أحد هذه الأمة ما ملك معاوية"^١ . و قد تصدى لهذه المسألة بشكل خاص ، الاخباريون اليمينيون الذين وجدوا في الاسرائيليات مادة خصبة للتعرف إلى تاريخ بلادهم القديم . ومن أبرز هؤلاء : وهب بن منبه و عبيد بن شريه في القرن الأول الهجري ، إذ راكم كلاهما وبدافع التعصب لموطنهم - كما يعتقد الدوري - أخباراً عن تاريخها هي عبارة " عن مزيج من القصص الشعبية و الاسرائيليات ، و حاولوا بذلك تمجيد عرب اليمن ، بأن نسبوا إليهم أجداداً في الحرب و الصنعة و اللغة و الأدب و حتى في الدين ليدلّلوا على انهم سبقوا عرب الشمال في أجدادهم أو أنهم لا يقلّون عنهم في ذلك"^٢ .

و قد تمتع عبيد بن شريه بشهرة خاصة في هذا المجال، لاسيما و أنه عمّر طويلاً و عاصر معاوية بن أبي سفيان الذي كان له شغف بسماع قصص التاريخ، " ويستمر - حسب رواية المسعودي- إلى ثلث الليل في أخبار العرب و أيامها و العجم و ملوكها و سياستها لرعيتهما و سير ملوك

^١ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٥

^٢ عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٥

الأمم و حروبها و مكايدها ... و غير ذلك من أخبار الأمم السالفة^١ ".
و غالباً ما استدعى معاوية عبيداً ليحدثه بمثل هذه الاخبار التي كان كثيرها
على ما يبدو ملفقاً ويدخل في نطاق الاساطير أكثر من الواقع .

وهكذا يدخل الفكر اليهودي عبر التاريخ الى تراث العرب ، فيشكل
مادة أساسية في أخبار المرحلة السابقة على الاسلام . و كان أكثر من
رُوج له في ذلك الوقت المبكر الذي شهد بدايات التكوين التاريخي ،
وهب بن منبه ، وهو وُلد لأم عربية في اليمن ، ألا أن الغموض يحيط
بنسب أبيه ، إذ يرى المؤرخ زكّار بأنه يتحدر من "الأبناء" الفرس و ربما
اعتنق اليهودية^٢ . ولكن وهباً سارع الى الانخراط في الاسلام ، و توصل
الى أن يكون " من خيار التابعين ... ومات وهو على قضاء صنعاء " كما
جاء في تصنيف ياقوت الحموي له^٣ ، و الذي و صفه أيضاً ، بأنه
"صاحب القصص.... كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة
بالاسرائيليات"^٤ . و على الرغم من اتخاذ سيرة الرسول حيزاً ما في أخبار

^١ مروج الذهب ج ٣ ص ٣١

^٢ سهيل زكّار ، المرجع السابق ص ٣٦

^٣ معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

^٤ المصدر نفسه ج ١٩ ص ٢٥٩

وهب ، الا أنه اهتمّ أساساً- شأن عبيد بن شربه - بتاريخ اليمن ، دمجاً
الكثير من الاسرائيليات بالأساطير العربية القديمة عنه^١ .

ولاشك أن تأثير الاسرائيليات ظلّ واضحاً ، و لوقت غير قصير ، في
الأعمال التاريخية للعرب المسلمين ، حتى إذا كان عصر المؤرخين الكبار
في القرن الثالث الهجري ، بات من المؤلف في منهاجهم ، و وضع
مقدمات لتواريخهم تتسع لقصص الانبياء السابقين ، وهو ما يندرج
أيضاً في باب الاسرائيليات^٢ ، كما يتجلى على الخصوص لدى كل من
اليقوبي^٣ والطبري^٤ . و على هذا النحو سار المؤرخون في القرون التالية ،
فجاءت مقدماتهم مزدحة بأخبار الأمم القديمة ، لاسيما أخبار بني
اسرائيل.

وإذا كان المؤرخون الأوائل ، في انكبابهم على التأريخ للاسلام ، قد
رأوا أن عملهم لا يكتمل الا بالعودة الى ما قبله ، فإن موجة الاسرائيليات
- ربما عن غير قصد - لم تعدم تأثيراً في أخبارهم ، لاسيما تلك التي
يشوبها تلفيق عن حركات المعارضة. و ليس بعيداً أن تكون شخصية

^١ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي و المؤرخون ج ١ ص ١٣٨

^٢ المكان نفسه

^٣ تاريخ اليقوبي ج ١ ص ٢٤ و ما بعدها

^٤ تاريخ الرسل و الملوك ج ١ ص ٢٧٢ و ما بعدها

عبدالله بن سبأ من ضمن ما لَفَّقته الروايات التاريخية ، في سياق الدفاع عن الشرعية الممثلة بالخلافة ، و التي كان المؤرخون عموماً يدورون في فلكها و يرون أنها رمز وحدة المسلمين ، كائناً من كان القوائم بأمرها . و هي مسألة لا تعدو المنهج في النهاية ، لأن المؤرخ محكوم بالنص ولاسبيل أمامه سوى الالتزام به، ولكنه انطلاقاً من الخبرة وما يتمتع به من ثقافة تاريخية ، فضلاً عن النظرة النقدية التي يتوصل اليها ، يستطيع ، ومن غير صعوبه التمييز بين الروايات ، شأن الذين حققوا في أحاديث الرسول فنبذوا الكثير مما ليس مقبولاً منها . و الشك يصبح هنا من واجبات المؤرخ ، دون ان يكون غير وسيلة لاكتناه الحقيقة التاريخية ، لأن الاستسلام للنص معناه الاصطدام بمنطق الحدث الذي خضع لاعتبارات ربما مسّت الجانب الموضوعي فيه .

و ليست رواية عبد الله بن سبأ وحدها مما يثير الريب لدى المؤرخ الذي يجد نفسه احياناً أمام أحداث ليست خالية من الصنعة أو من تدخل العنصر الخارجي فيها ، على نحو يَحُلُّ بالانسياب في مسار المرحلة . و نتوقف هنا بشكل خاص عند حادثة " فلورندا" ^١ التي يبدو أنها

^١ هي ابنة خوليان حاكم سبته الذي ارسلها الى بلاط الملك لذريق (رودريك) في طليطلة للتأديب بأداب الملوك . فبهر جمالها الملك الذي اعتدى عليها ، مما اثار حقد خوليان الذي اتصل -

مدسوسة من المؤرخين الأسبان، كأحد العوامل التي مهدت لفتح بلادهم ، دون أن يكون لها من هدف سوى تشويه الانجاز الذي حققة العرب المسلمون في اسبانية.

وهكذا تسرّبت إلى الفكر التاريخي العربي المؤثرات اليهودية، مؤديةً الى تراكم الأساطير و الغيبيات فيه ، دون أن يقتصر ذلك على الحقبات السابقة على الاسلام ، ولكنها انعكست بصورة ما على أحداث بعده ، لم تخل أخبارها من نفس أسطوري . ولم يتنبّه المؤرخون من أقطاب المدرسة الحديثة كثيراً إلى هذه المسألة ، خصوصاً و أن الغالبية منهم أغفلت نقد النص التاريخي ، مما جعل أعمالهم محاكاة لأعمال الاسلاف في المضمون و الاسلوب و حتى في طريقة التفكير . و عندما ترجم المؤرخ حسن ابراهيم حسن ، كتاب المستشرق الهولندي " فان فلوتن" ^١ بدا تأثيره واضحاً بالمناخ السائد في القرون الهجرية الاولى ، فاستبدل

-بالعرب وحرّضهم على غزو اسبانيا ، مقدّماً لهم المساعدات العسكرية حسب الرواية التاريخية .

ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤

^١ ترجمه في الثلاثينات من هذا القرن تحت عنوان " السيادة العربية و الشيعة و الاسرائيليات في عهد بني أمية " . وقد قمت بإعادة ترجمته عام ١٩٨٠ . و صدرت مؤخراً طبعة ثالثة له حاملة العنوان الأكثر مطابقة للأصل الفرنسي ، وهو : السيطرة العربية و التشيع و المعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية

بـ"المعتقدات المهدية" (في العنوان) ، "الاسرائيليات" التي وجدها أكثر
ملاءمة لمنهاجه المتطابق الى حد كبير مع منهاج المؤرخين الاوائل .

من هو عبد الله بن سبأ

بعد هذا المدخل في المنهج ، نتساءل إذا كانت شخصية عبد الله بن سبأ من انتاج ذلك الموروث " الاسرائيلي " الذي اختزنه الذاكرة العربية قبل مرحلة التدوين ، او بمعنى آخر ، اذا كانت مجرد اسطورة على هامش الأحداث ، أم حقيقة تغلغت في نسيجها ، و بالتالي كانت وراء ذلك المنعطف الأكثر خطورة في تاريخ الاسلام ؟ هذه القضية ظلت ساكنة خلال قرون عديدة ، ولم يتعد التعرض لها ما جاء في رواية سيف بن عمر " المفردة " عنها، أي انه تم التعامل معها على أساس أنها جزء لا ينفصل عن سياق ما عرف بـ " الفتنة " الاولى، بل من أدوات تفجيرها الرئيسية عند بعض المؤرخين . ولقد بقي ذلك قائماً ، ما بقي المنهج التاريخي متوكئاً على منهج الرواية الخبرية، بعيداً عن أي نقد تحليلي أو مقارنة . على أن "السبئية" - دعوة ابن سبأ- اصطدم بها لأول مرة في هذا القرن، الكاتب الكبير طه حسين، وهو وإن لم يكن مؤرخاً الا أنه امتلك حساً تاريخياً مرفهاً ، مكّنه من الخوض في اشكاليات مهمة على

مساحة المرحلة . و قاداته أبحاثه حول ابن سبأ الى التشكيك بظهوره في الاصل ، فاتحاً الباب أمام إعادة النظر في هذه المسألة و غيرها من المسائل في التاريخ الاسلامي . غير أن الشك يصبح يقيناً لدى مؤرخ معاصر ، وهو السيد مرتضى العسكري الذي تصدى على نطاق واسع لشخصية ابن سبأ ، متوجاً جهوده بكتاب قارب فيه المنهج العلمي و قد صدر في ستينات هذا القرن تحت عنوان " عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى " . نقول قارب هذا المنهج ، لان الدخول كلياً فيه يقتضي الحيادية التامة وعدم الانطلاق من فكرة قائمة في تفسير التاريخ ، اذ أن العسكري يتعامل مسبقاً مع موضوعه على اساس أنه رواية ملفقة هدفها النيل من علي ، وربط التيار الذي يمثله بعنصر خارجي ، في حين أن المؤرخ محكوم من حيث المبدأ بالعودة الى النص ، وأي استنتاج يصل اليه انما يكون من داخل هذا النص وليس بعيداً عنه . و لانقصد هنا التبخيس بما قام به هذا العالم المحقق ، ولكن الانحياز الذي يتجلى ابتداءً من المقدمة في الكتاب ، وذلك على قاعدة الرفض المطلق لوجود هذه الشخصية ، جعل منه طرفاً " مقاتلاً " ، أكثر منه مؤرخاً هادئاً يتوخى فقط الحقيقة التاريخية .

إن ما تردد من عبارات " متوترة " - إذا جاز التعبير - في مستهل الكتاب ، جاء استجابة لهذا الموقف الذي يسارع "العسكري" الى إعلانه . ومن ذلك : " يتلخص ما زعموا بأن يهودياً من صنعاء اليمن

أظهر الاسلام في عهد عثمان و اندسّ بين المسلمين و ستموا بطل قصتهم عبد الله بن سبأ، ولقبوه بابن الأمة السوداء.... و زعموا أن السبئيين أينما كانوا أخذوا يثيرون الناس على ولاتهم .. وزعموا أن المسلمين بعد أن بايعوا علياً و خرج طلحة و الزبير لحرب الجمل ، رأى السبئيون أن رؤساء الجيشين أخذوا يتفاهمون ... فاجتمعوا ليلاً و قرروا أن يندسوا بين الجيشين و يثيروا الحرب ... وزعموا أن حرب البصرة.. وقعت هكذا دون أن يكون لرؤساء الجيشين فيها رأي أو علم إلى هنا ينتهي هذا القاص من نقل قصة السبئيين ولا يذكر بعد ذلك عن مصيرهم شيئاً^١ .

ولعل نفي الكاتب على هذه الصورة لشخصية ابن سبأ ، قد يؤدي الى عكس ما يتوخاه ، أي الى تكبير هذه الشخصية و نسب أعمال خارقة اليها ، حتى لو أشارت الى ذلك الرواية وفي هذه الحالة فإن منطق الحدث الذي يعني المؤرخ و ليس الحدث نفسه ، خصوصاً إذا كان مقطوعاً عن سياقه او على تنافر معه. فلماذا توقفنا عند حرب الجمل التي وردت في النص السالف كمسرح للسبئية ، فإنها- و استناداً الى مجموع الروايات- قد نضجت فكرةً في مكة بعد التثام قادة المعارضة لعلي (طلحة ، الزبير ،

^١ مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى ص ٢٩ - ٣١

عائشة) و موافاة يعلي بن منية التميمي (والي عثمان على صنعاء) لهم ،
ومعه خراجها ، حيث أسهم و الزبير وعبد الله بن عامر (والي البصرة في
عهد عثمان) في تمويل حركتهم المناوئة للخليفة^١. وقد اختار هؤلاء
البصرة بعد دراسة دقيقة ، كونها مهياة أكثر من غيرها لتشكيل بؤرة
يعملون من خلالها على إسقاط خلافة علي. وليست الحرب التي وقعت
فيها الا محصلة حتمية لخروج قادة المعارضة في جو مشحون أساساً بالعداء
للخليفة ، والذي لم يكن بحاجة الى عنصر آخر يسهم في شحنه و الجرّ الى
الصدام المسلح.

و في ظل هذا المناخ ، ذهبت سدى مناشدة علي لهم "في الدماء" ، اذ
"أبو الا الحرب" كما يقول المسعودي^٢. كما تبدد تحذير الممول الرئيس
للحركة (يعلي بن منية) الذي قدّر صعوبة الموقف في البصرة ، وأخذ
يتجه بأنظاره الى الشام^٣ ، حيث اسس معاوية سلطة قوية فيها ، متقاطعا
في ذلك مع عبد الله بن عامر الذي نصح بعدم تجاهله: " فان غلبتم علياً
فلكم الشام وإن غلبكم علي كان معاوية لكم جنة"^٤.

^١ الطبري ج ٤ ص ٤٥٠ ، ابن الاعثم ، فتوح ج ، ص ٧٩

^٢ مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١

^٣ الإمامة و السياسة ج ١ ص ٥٦

^٤ المكان نفسه

والسؤال مازال قائماً من هو عبد الله بن سبأ ؟ و بدايةً لا بد من القول - وهذا ما تنبه له أولاً طه حسين و خاض فيه على نطاق واسع مرتضى العسكري - أن الطبري تفرّد من بين مؤرخي جيله الكبار، بذكر هذه الرواية المنسوبة للإخباري سيف بن عمر التميمي . و لعل هذا الطبري الذي تستهويه التفاصيل و عُرف عنه عدم الاكتفاء برواية واحدة، خلافاً لمعاصريه الذين تعمّدوا الانتقاء في رواياتهم ، كان يجنح أحياناً عن هذه القاعدة، فيقع في شرك الرواية المفردة في أكثر من موضع من تاريخه المطوّل ، منحرفاً بها عن السياق مكاناً و زماناً ، وعن المنهج الذي التزم به على مساحة واسعة منه . ومن ذلك تلك الرواية الغريبة - وهي لسيف أيضاً- التي تتحدث عن غزوة أمر بها الخليفة عثمان الى الأندلس^١ ، دون أن يكون العرب المسلمون قد انتشروا نفوذاً فعلياً ما يتعدى برقة في افريقيه . و إذا توقفنا عند الجزء الرابع من "تاريخه" ، والذي تغطي مادته أحداثاً شديدة الأهمية في التاريخ الاسلامي (١٦ - ٣٦هـ)، سنجد غالبية المرويات عن هذه الفترة مسندة الى سيف بن عمر. و هذا الأخير لا يتمتع كإخباري بالثقة نفسها التي يتمتع بها الآخرون ممن اعتمد على رواياتهم الطبري ، الامر الذي يدعونا الى الحذر من ركام

^١ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٥

الروايات لدى هذا المورخ، حيث انصبت غزيرة في مكان و تخلخلت حتى الرواية الوحيدة بل المبتسرة في مكان آخر.

و بالعودة الى رواية سيف عن ابن سبأ ، فإننا لانعثر فيها الا على القليل جداً من سيرة هذا الرجل ، نشأة و سلوكاً و توجهات، قبل ان يبرز فجأة في ذلك الدور المنسوب له مخترقاً و على غير مألوف ، البنية الفكرية السياسية للمسلمين " في المدينة " و الامصار . فقد اكتفت الرواية بوصفه أنه " كان يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم ان عيسى يرجع و يكذب بأن محمداً لا يرجع . و قد قال الله عز وجل (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)^١ .

و قال لهم بعد ذلك : " إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، و كان علي وصي محمد ، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء و علي خاتم الاوصياء. وقال بعد ذلك "من أظلم ممن لم يجزِ وصية رسول الله (ص) ووثب على وصي رسول الله (ص) . و تناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن

^١ سورة القصص الآية ٨٥

عثمان أخذها بغير حق ، و هذا وصي رسول الله (ص) ، فانهضوا في هذا الامر فحركوه ، و ابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الامر بالمعروف و النهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الأمر"^١ هذه يحمل افكار ابن سبأ في القسم الاول من الرواية و هي تركز على قضايا أربع رئيسة :

١- فكرة الرجعة بالنسبة للرسول محمد.

٢-التأكيد على حق علي بالخلافة كوصي للنبي

٣- الطعن بعثمان الذي تولى الخلافة بغير حق .

٤-التحريض على الثورة.

و لم يكتفِ ابن سبأ -ودائماً حسب الرواية - ببيت هذه الأفكار ، وإنما يسعى إلى الترويج لها في الامصار ، حيث أصاب على ما يبدو شيئاً من النجاح في مصر ، كونها أقل تأثراً بالعصبية القبلية من الامصار الاخرى . فأخذ يستنهض أهلها ، الامر الذي أثمر بعد وقت قصير عن موقف كان الأكثر تطرفاً ضد الخليفة عثمان . و لكن المؤرخ لا يدع مثل هذه الرواية قبل أن يجابه أسئلة لا بد من طرحها في هذا السياق :

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١

١- كيف استطاع هذا الرجل وهو حديث العهد جداً بالاسلام ، أن يصل على ذلك النحو من السرعة الى الموقع الذي صار اليه ، متحدثاً بأمر تمس عمق المعتقد الديني ، و بالتالي الانتقال بالسرعه نفسها الى قيادة التيار المناهض للخليفة على كامل مساحة الدولة الراشدية.

٢- هل كان ابن سبأ يقوم بهذه الحركة بحافز اصلاحي ام بحافز تضليلي انطلاقاً من خلفيته اليهودية ، و استطراداً هل كان يتحرك عبر قنوات خاصة به ، أم أن قوة خفية كانت تخطط وراءه وتدفع به الى الواجهة .

٣- علاقته بعلي ! كيف بدأت ؟ و لماذا كان الانحياز له؟ هذا ما تجاهلته رواية سيف و لم تلمح اليه أية رواية أخرى . فقد كان لعلي أنصار كثيرون ، متحمسون لحقه بالخلافة ، فلم جاء التركيز على شخصية من خارج النخبة التي عمل على استقطابها و استمد منها حضوره المعنوي البارز في ذلك الوقت ؟.

٤- هل كان ابن سبأ فعلاً هو الموجّه للتيار "الاصلاحي" المعارض لعثمان ؟. و هذا يعني لو قبلنا به ، أننا نلغي تلك المقدمات التي كانت سابقة على حركته . فالرواية التي نتحدث عن انتقاله الى مصر ، تندرج في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، فيما كانت حركة أبي ذر الغفاري في العام الثلاثين منها. و بعدها بثلاثة أعوام قامت حركة الاشر النخعي

في الكوفة ، متصديةً لوالي عثمان ، سعيد بن العاص ، وسياسته الاقتصادية بشكل خاص ^١ .

٥- هل كان هذا الداعية ، و انطلاقاً من الرواية، شخصية خرافية اصطنعها خيال سيف لاضفاء عنصر جديد على روايته ، يميزه عن غيره من الاخباريين الذين خلت رواياتهم من أية اشارة لها، أم أنها شخصية انتهازية توخّت ركوب موجة السخط على عثمان، و صولاً الى أهداف لم يتح ذلك العهد تحقيقها ؟ ...

هذه الأسئلة - عدا الشك الذي تشيره - حول شخصية ابن سبأ وقدرته " الفائقة" على الدخول في نسيج المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت، فإنها تكشف ضعفاً في رواية سيف ، بإهمالها نقطة أساسية وهي أن يتاح لابن سبأ ، ولما يكن قد مضى سوى القليل من الاعوام على اسلامه، التصديّ لمسائل كانت ما تزال من شأن النخبة أو من يُسمون بذوي السابقة . ولا يتوقف الامر عند هذا الحدّ، فهذا الرجل " الخارق" -وفقاً لما جاء في القسم الثاني من الرواية - يصبح له جهاز تنظيمي متقن، و دعاة منتشرون باسمه في الامصار ، مما يذكرّ بجهاز الدعوة العباسية التي احتاجت الى سنوات طويلة لتنظيم نفسها على ذلك النحو .

^١ الطبري ج ٤ ص ٣١٨

تتابع الرواية فتقول : " بثّ (ابن سبأ) دعائه ، و كاتب من كان استفسد في الامصار و كاتبوه و دعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و جعلوا يكتبون الى الامصار يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب اخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصفون ، فيقرأوه أولئك في امصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الارض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويُسرّون غير ما يدون " ^١ .

هذه "الدعوة السرية" يبدو ان شيئاً من أخبارها قد تسرّب الى عثمان ، فأشار عليه المقرّبون أن يبعث رجلاً ممن يثق بهم الى الأمصار لاستطلاع الأمر. فانتدب محمد بن سلمة الى الكوفة وعبد الله بن عمر الى الشام ، وعمّار بن ياسر الى مصر و أسامة بن زيد الى البصرة ، فرجعوا جميعاً دون ملاحظة ما يريب ، باستثناء عمار الذي استماله القوم " ومنهم عبد الله بن السوداء " ^٢

و تنتهي الرواية عند هذا الحدّ ، فلا تشير إلى ما كان من أمر عثمان إزاء هذه الحركة التي تولب عليه اهل الامصار وتدعوهم الى

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٤١

^٢ ابن سبأ . المكان نفسه

اسقاطه. ولعل ما يستوقفنا في هذا السياق ، تلك السرية التي أحاطت بها نفسها ، في وقت كانت الاصوات مرتفعة في الاحتجاج على عثمان ، والقيادات في الأمصار تتأهب للقدوم الى المدينة . وهذا الواقع لم يخف على الرجل القوي في البيت الاموي ، معاوية بن أبي سفيان ، الذي ترقب سقوط الخليفة : " والله يا أمير المؤمنين لتغتلن او لتغزين " استناداً الى رواية ثانية لسيف^١ .

ذلك أن والي الشام ، و قد رأى صعوبة انقاذ الخليفة في ظل النعمة الواسعة التي استهدفته ، دعاه أبان اجتماع الولاة في المدينة (٣٤هـ) للانتقال الى الشام : " قبل ان يهجم عليك من لا قبل لك به ، فان اهل الشام على الأمر لم يزالوا^٢ . وإذ رفض عثمان " بيع جوار رسول الله (ص) بشيء^٣ فقد تعهد معاوية إرسال جنود لحمايته ، ولكن من غير أن يفي بعهده ، مما جعل الخليفة فيما بعد ، يواجه مصيره وحيداً ودونما تدخل لمصلحته حتى من الجانب الاموي .

و هكذا فإن " الفتنة " التي اطاحت عثماناً ، كان اكثر من طرف ضالع فيها ، بدءاً من قادة الكوفة الذين عانوا تسلط الولاة وتهميش

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٤٥

^٢ المكان نفسه

^٣ المكان نفسه

هؤلاء لهم ، وصولاً الى مصر ، حيث كان لمحمد بن ابي بكر الذي عينه عثمان والياً عليها ثم تراجع عن قراره ، دور بارز في قيادة الحملة على الخليفة . ولم يكن معاوية خارج هذه الدائرة ، بدفعه الأمور الى المأزق في المدينة ومتحفظاً للانقضاض عندما تسنح الفرصة بذلك . ومن اللافت أن قادة الأمصار بعد وصولهم الى المدينة وسيطرتهم على الوضع فيها خلال أربعين يوماً من الحصار للخليفة ، لم نعر خلال هذا الوقت على أي أثر فيها (المدينة) لعبد الله بن سبأ ، و لم نجد في الروايات ، بما فيها تلك المنسوبة لسيف ، ما يوحي بأي اتصال له مع هؤلاء القادة .

قد يكون السبب أن ما توخاه ابن سبأ قد وصل اليه وهو اندلاع الفتنة بين المسلمين ، فراجع الى الظلّ ، مؤدياً دوره على أتم وجه . ولكن هل كانت الدعوه الى عليّ الذي توجهت اليه الأنظار كبديل أساسي بعد عثمان ، تدرج في سياق هذه "الفتنة" ؟ فالجواب على ذلك دونه الكثير من الغموض الذي لم تستطع تلك التطورات تبديد شيء منه . فلعله (ابن سبأ) خاض "معركته" تحت ستار هذه الدعوة ، لتسويق حركة "التضليل" التي قام بها و جذب الانتصار اليها . و الجواب مرة أخرى ، أن دوره - إن صح و جوده - لم يمت بصلة الى التحرك الذي كان عليّ يقوده في تلك المرحلة و الذي صبّ أساساً في اتجاه المحافظة على مركز الخلافة ، والعمل على إنقاذها من السقوط . ذلك أن علياً

الذي أعدّ نفسه لهذا الموقع بعد وفاة الرسول ، ورأى انطلاقاً من عدة اعتبارات، أنه مؤهل لقيادة الأمة ، أصبح زاهداً بالخلافة بعد هبوب تلك الفتنة و ما تحمله من رياح عاتية تهدد وحدة المسلمين. و لكن مخاوفه نفسها عادت فألقت به في ذلك الخضمّ المائج ، خصوصاً بعد انكفاء البقية من الصحابة ، ولم يجد بداً من مواجهة الدور الذي تطلّب رضوخاً أمام المحنة ، و قيل أنه استجاب للبيعة أمام الحاح قادة الأمصار ، وفي طليعتهم الاشر ، استناداً الى رواية يذكرها الطبري^١ .

كانت تلك الحلقة المركزية في رواية سيف عن عبد الله بن سبأ والتي اندرجت في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ، حين بلغت الأزمة ذروتها في المدينة . فوجد هذا الداعية " الدخيل " - كما توحى الرواية - فرصته النادرة للتحرك و ركوب الموجة التي أخذت تتسع ، فيما الخليفة المتداعي موقفاً ، يضيق المدى من حوله وينتهي صريعاً في صخب العاصفة .

وعلى الرغم من أن الخاتمة لم تحمل الكثير من المفاجأة ، فإن مقتله على ذلك النحو شكّل سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام ، إذ فقدت الخلافة هيبتها ، و لم يتورّع المغامرون فيما بعد عن الانقضاض عليها ، مقتبسين الاسلوب نفسه حين تتعارض مصالحهم مع الخليفة .

^١ الطبري ج ٤ ص ٤٢٩

و لكن هل كان للسببيين دور في قتل عثمان ؟ هذا نظرحه من باب الشك فقط ، خصوصاً و أن " اتهم " محمد بن ابي بكر بذلك ، أضفى شيئاً من اللبس على هذه المسألة . لقد شاعت " التهمة " في الواقع لدى بعض المؤرخين ، بناءً على أن محمداً كان من اواخر الذين دخلوا على عثمان قبل اغتياله . بيد أن القارئ بدقة تفاصيل ذلك اللقاء الاخير ، لا يجد معطيات كافيه - سوى التحريض - ترجح هذا الاتهام ، إذ جرى ما يشبه العتاب - و إن كان حاداً بين الاثنين - خرج على اثره محمد " منكسراً " ، حسب رواية الطبري^١ . في هذا الوقت كان " المصريون " ^٢ يُحكمون حصارهم على منزل الخليفة ، و يتسلق أحدهم " السور " (سودان بن حمران) فيصرعه حسب الرواية نفسها^٣

ولو عدنا الى ما رواه سيف عن دعوة ابن سبأ في مصر - حيث حققت ربما من النجاح أكثر من بقية الامصار - لأمكن القول - من باب الافتراض فقط - أن السببيين تسللوا في الوقت الملائم الى صفوف " المصريين " الذين وضعوا حداً للحصار بقتل الخليفة . ولعل رواية " خليفة ابن خياط " تغزّز هذا الاتجاه ، إذ تنسب الى الحسن بن علي قولاً في

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٩١

^٢ المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٨٨

^٣ المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٩٤

معرض الردّ على سؤال ، اذا كان فيمن قتل عثمان أحدّ من المهاجرين والانصار ؟ "قال: لا كانوا اعلاجاً من أهل مصر"^١ . ولكن الطريقة التي تمّ بها اقتحام دار عثمان ، وما صاحب ذلك من انتهاب لبيت المال ، ترجّح النمط البدوي الذي اندرجت فيه قبيلة قاتل الخليفة ، و بالتالي يصبح التأثير الخارجي ضعيفاً في هذه العملية التي ألفت مثلها القبائل في "الايام" السابقة على الاسلام .

وإذا خرجنا من هذه الحلقة الاساسية في رواية سيف لتتابع أطرافها في تلك المرحلة ، فلا بدّ لنا من العودة سنوات خمس الى الوراء ، حين وردت أول اشارة عن ابن سبأ في العام الثلاثين للهجرة ، في سياق الانتفاضة التي قادها أبو ذرّ الغفاري ضد الخليفة عثمان . و في مقدمة ما يعنيه ذلك أن حركة المعارضة انطلقت من المدينة ، وعلى يد واحد من النخب في الاسلام الأول ، و أن عبد الله بن سبأ التحق بداعيتهما في الشام ، راكباً الموجة تحت ظله ، وضارباً على وتر القضية الأساس في خطابه ، حين بادر - حسب الرواية - بقوله: "يا أبا ذرّ . ألا تعجب الى معاوية ، يقول : المال مال الله ! ألا ان كل شئ لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين"^٢

^١ تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ١٩٢

^٢ تاريخ خليفة بن خياط ج ١ ص ١٩٢

لقد أصاب ذلك الهدف الرئيس عند الغفاري الذي كان يرفع شعاره في هذا الاتجاه ، مندداً باستئثار عثمان بالأموال التي يراها الخليفة أموال الله ، انطلاقاً من مفهومه للسلطة ، بأنها أيضاً " سلطة الله " . فأتى الغفاري معاوية و قال له : " ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله ! قال (معاوية) : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، و المال ماله ، و الخلق خلقه ، و الامر أمره . قال (أبو ذر) : فلا تقله . قال (معاوية) : فإنني لا أقول : إنه ليس لله و لكن سأقول : مال المسلمين" ^١ . و لعل معاوية في ردّه المرن على أبي ذر ، إنما يكشف عن أبعاد رؤيته الواقعية في السياسة ، والتي كانت أساس مشروعه القائم على التوفيق بين الاسلام و الصيغة القبلية المتوازنة ، و هذا ما دفعه الى تفادي الصدام مع الصحابي الكبير ، تاركاً البتّ بقضيته الى الخليفة .

وهكذا فإن الغفاري الذي قاد حركة التصويب لمسار الحكم في الاسلام ، خالجه الشك ، وهو الصحابي القديم ، بهذا الوافد عليه . فقد اشتبه به أبو "الدرداء" - و كان مع أبي ذر - وقال له : "من أنت ؟ أظنك والله يهودياً" ^٢ . وبعد ذلك تتابع رواية سيف ، محدثةً عن الغفاري

^١ الطبري ج ٤ ص ٢٨٣

^٢ الطبري ج ٤ ص ٢٨٣

و تنديده بالاغنياء ، وتحريضه الفقراء عليهم ، حتى " ولع " به هؤلاء ونازعتهم نفوسهم الى التمرد فضاقت به معاوية و أعاده الى المدينة ، ومنها قام الخليفة بنفيه الى الريزة حيث توفي فيها . أما ابن سبأ ، فقد تجاهلته الرواية تماماً ، دون أن تشير في الوقت نفسه الى موقف معاوية منه ، خصوصاً وأن ثمة من جاء به الى معاوية محذراً : " هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر " ^٢ .

ويغيب " السبئي " سنوات ثلاث عن رواية سيف ، حتى يعود الى الظهور مرة أخرى في سياق حملة التأديب التي استهدفت في ذلك العام (٣٣ هـ) قادة المعارضة في الكوفة و البصرة . فقد فشل ولاية عثمان في حملهم على الاستكانة ، مما دفع الخليفة الى إحالة هذه المهمة الى معاوية الذي قام بها على أكمل وجه . وجاء في الرواية أن رجلاً من عبد القيس وهو حُكيم من جبلة " أفسد في الارض ... فشكاه أهل الذمة و أهل القبلة الى عثمان ، فكتب الى عبد الله بن عامر (والي البصرة) أن احبسه و من كان مثله فلا يخرج من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً ، فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها . فلما قدم ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) نزل عليه و اجتمع اليه نفر ، فطرح لهم ابن السوداء و لم يصريح ،

^١ المكان نفسه

^٢ الطبري ج ٤ ص ٢٨٣

فقبلوا منه واستعظموه ، وأرسل اليه ابن عامر ، فسأله : ما انت ؟ فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام و رغب في جوارك ، فقال : ما يلغني ذلك ، أخرج عني ، فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها فاستقر في مصر و جعل يكاتبهم و يكاتبونه " ويختلف " الرجال بينهم" ^١ . و لعل ما يدعو الى الغرابة هنا ، أن يتحرك ابن سبأ بمثل تلك الحرية ، ويجوب دونما عائق الولايات ، ناشراً أفكاره ضد السلطة التي كانت متشددة في ملاحقة المعارضة ، كما تبدي لنا من الرواية حول سجن حكيم بن جبلة بتهمة هي على الأرجح سياسية ، وما تبع ذلك من نفي آخرين الى الشام ^٢ . فهذه السلطة التي ضاقت بحركة الغفاري ، وهو سابق في الاسلام و له موقع معنوي بارز فيه ، نجدها تتصرف بشيء من الليونة مع ابن سبأ ، وهو بعدُ خارج الاسلام أو " راغب " فيه كما عرّف عن نفسه في الرواية . فاختصرت ردّة الفعل إزاءه على نفيه من البصرة ، على غرار ما جرى له في الشام على يد معاوية فيما بعد ^٣ . فهل يكون مردّ هذا الموقف الى دافعين ؟ :

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

^٢ الطبري ج ٤ ص ٣٢٧

^٣ الطبري ج ٤ ص ٣٤٠

١- إن أركان الحكم جهلوا تفاصيل الحركة " السرية " التي يقودها ابن سبأ، استناداً الى قول عبد الله بن عامر في الرواية " ما بلغني ذلك " .

٢- إن هؤلاء لم يجدوا فيها خطراً على "نظامهم" ، كما وجدوا في حركة الغفاري الذي خاطبهم من موقع الاسلام ، بما ينطوي عليه ذلك من إخراج مباشر للخليفة و سلطته " الالهية " ؟ .

وهكذا ، بناءً على هذه الرواية المفردة عن ابن سبأ ، فإن الاخير لم يحقق ما توخاه من نجاح ، لا في مركز الخلافة ، ولا في الامصار الثلاثة (البصرة، الكوفة ، الشام) . ولكنه على ما يبدو وصل الى شيء منه في مصر التي أكره على اللجوء اليها ، ممارساً نشاطه بسرية تامه و بعيداً عن المراقبة المباشرة . و إذا كان من محصلات ذلك ،أو من باب افتراضها أن وفد أهل مصر بدا أكثر حدة في معارضته للخليفة عثمان بعد قدومه المدينة، فإن ما حدث في الاخيرة من تطورات خطيرة لم تكن خاضعة كما تبين لمؤثرات مسبقة ، بقدر ما اسهم المناخ الداخلي فيها .ذلك أن قادة الامصار لم يحملوا معهم خطة مبيتة لقتل الخليفة وانما طرأت عوامل جديدة ، جعلت هذا الامر سبيلاً ربما لدى بعضهم للخروج من الأزمة المعقدة . و ثمة ما يمكن التوقف عنده اخيراً في هذا السياق ، وهو علاقة السبئيين بالتطرف الذي أبداه " اهل مصر " إزاء الخليفة عثمان . فأذا رجعنا الى الرواية نجد أن " إخراج " ابن سبأ الى مصر تمّ على يد معاوية

بعد لجوئه الى الشام قادمًا من الكوفة في العام الخامس و الثلاثين للهجرة ،
 أي في العام نفسه الذي توّجّعت فيه وفود أهل الأمصار الى المدينه ...
 فهل استطاع ، و على ذلك النحو من السرعة ، أن يّث دعوته في هذا
 الاقليم ، و أن " يوسع " اتباعه " الارض اذاعة " كما جاء في الرواية ^١ ؟ .
 ومن اللافت أن " السبئي " نفتقده في الحركة التي يُفترض - وفقاً
 للرواية - أن يكون في مقدمتها و هي التي تطورت الى قتل الخليفة
 (عثمان) . لعله كان يحيط نفسه بسريه شديده في ذلك الوقت، حتى إذا
 احتدمت المواجهه في البصرة بعد اتخاذها موقفاً لمناوأة الخليفة علي - و دائماً
 و بالاستناد الى رواية سيف - ظهر بقوة كمحرك للفتنه و داعية للحرب
 على رأس جماعه من المصريين تدفع في هذا الاتجاه ^٢ . وكانت تلك آخر
 مرة يتردد فيها ذكر السبئي ، معبرة عنه الرواية بإبن السوداء أو عبد الله
 ابن السوداء ^٣ .

ولكن السبئيين كتيّار سيبقى لهم دور بعد نهاية حرب البصرة ،
 متخذين حيزاً مستقلاً عن الخليفة (علي) . فقد جاء في الرواية :
 " واعجلت السبئية علياً عن المقام ، و ارتحلوا بغير إذنه ، فارتحل في آثارهم

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٤١

^٢ سيف بن عمر ، الفتنة ص ١٤٧

^٣ المصدر نفسه ص ١٤٨

ليقطع عليهم امراً إن كانوا ارادوه"^١. على ان هذا الدور بقي غامضاً ، ولم يرشح منه ما ينم عن أي نشاط لهم خلال الوقت الذي أمضاه علي خليفة في الكوفة . فهل يعني ذلك أن دور السبئي انتهى عند هذا الحد بعدما أشعل الفتنة و شق وحدة المسلمين ؟ و لكن الا يبدو غريباً لمن قام بمثل هذا الدور أن تغفل المصادر التاريخية اخباره بصورة قاطعه ؟ .

إن كثيراً من عناصر الضعف تحيط في الواقع برواية سيف بن عمر عن عبد الله بن سبأ ، مما يعرضها للشك من منظور علمي ، ومن منظور المنطق التاريخي نفسه . و كونها رواية مفردة ، بعد اهمال ركام الروايات لهذه الشخصية الغامضة ، يعزز هذا الشك الذي يُبنى على المقارنه و النقد و التحليل ، وليس على الرفض المبدئي الذي أعلنه مسبقاً بعض المؤرخين لأسباب خاصة بهم . كذلك فإن الرواية بحد ذاتها مرتبكة و لاتقدم من المعطيات ما هو كاف للإحاطة بملاسات الدور الذي قام به هذا "اليهودي" القادم حديثاً الى الاسلام .

وسواء كانت هذه الشخصية موجودة بالفعل، ام أنها تلفيق من انتاج التواتر الإخباري المعقد ، فإن الدور المنسوب لها لايشكل بنظر المؤرخ العلمي تلك الأهمية التي أحيطت به . وبناء على ذلك فإن حركة إبن

^١ الطبري ج ٤ ص ٥٤٣ - ٥٤٤

سبأ، بالقليل جداً من المادة حولها ، من الصعب اتخاذ موقف أكثر وضوحاً بشأنها ، وهي لا تعدو بالتالي أن تكون - إن وجدت فعلاً - على هامش المسار التاريخي ، سواء بالنسبة للمعارضة بشكل عام ، أو بالنسبة لعلاقتها بعلي والتشيع بشكل خاص.

القسم الثاني

عبد الله بن سبأ في الدراسات الحديثة و المعاصرة

مدخل

لم تعدم " حركة " ابن سبأ اهتماماً من جانب المؤرخين الذين تناولوا مسار الخلافة الراشدية بشكل عام ، و تطورات الفتنة بشكل خاص . غير أن احداً لم يخض في تفاصيلها بما يلقي الضوء كافياً على خلفياتها وتوجهاتها ، فضلاً عن النتائج التي اسفرت عنها ، كذلك فإن اختلافاً بين هؤلاء المؤرخين في تقدير حجمها و انعكاساتها على المرحلة . فمنهم من سلم بها كحقيقة ، او على الأقل كجزء من المسار التاريخي ، ينطبق عليه ما ينطبق على بقية الأجزاء ، ومنهم من تجاهلها تماماً^١ ، أو دفع بها الى موقع ثانوي في أبحاثه^٢ ، و منهم من ارتاب بمحدثاتها^٣ و تعامل بحذر مع الرواية التي حملت أخبارها ، و منهم أخيراً من رفضها بالمطلق^٤ ورأى فيها مجرد تلفيق تعمده إخباري لا تتمتع رواياته بالثقة التامة . ولعل ابرز من يمثل الاتجاه الاخير ، مرتضى العسكري الذي يعود له الفضل في طرح هذه المسألة على نطاق واسع . فلم يكتف بالطعن في الرواية و انما

^١ محمد عبد الحفي شعبان ، صدر الاسلام والدولة الأموية

^٢ هشام جعيط ، الفتنة ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر

^٣ طه حسين ، الفتنة الكبرى

^٤ مرتضى العسكري ، عبد الله بن سبأ واساطير اخرى

اسقط ذلك على جميع الروايات المنسوبة لصاحبها (سيف بن عمر) ليخلص في النهاية الى ادراجها في باب القصص الذي يقتل "السام والفراغ"^١ حسب تعبيره . أما رائد المشككين بها فهو طه حسين ، ثم انضم اليه مؤخراً بوتيرة ارفع ، هشام جعيط الذي قادته ابحاثه عن الفتنه الى حسم موقفه إزاءها باتجاه الرفض.

ويبقى الاتجاه الداعم لوجود ابن سبأ وهو متمثل بالأكثرية من المؤرخين، ومعظمهم ينتمي الى مدرسة لا تعطي كبير شأن للنقد التاريخي، وهي تكاد تكون مجرد اقتباس عن مدرسة المؤرخين الاوائل، بما صاحبها من مؤثرات داخلية وخارجية اعاقت عنصر الموضوعية في رواياتها. كذلك فإن احتفاظ اصحاب هذا الاتجاه بالرؤية الدينية ذاتها التي سيطرت على اسلافهم، حال بينهم وبين الخروج الى الرؤية العلمية، فتعاملوا مع النص التاريخي كحقيقة مطلقة، تماماً كما تعامل الاسلاف مع احاديث الرسول، بل ان هذه ربما خضعت للنقد أو التمييز بين الصحيح وبين الضعيف منها، ما لم تخضع له الروايات التاريخية التي ظلت جامدة ولم يجر عليها النقد لوقت طويل. ولعل هؤلاء تأثروا بالمرحلة التي أعقبت سقوط الخلافة (العثمانية) في العقد الثالث من هذا القرن ، حين بدأ ظهور عدد

^١ المرجع نفسه ص ٢٥٧

من المؤرخين و المفكرين ، ممن عاش في وجدانهم رمز الخلافة وما يجسده من تشبث بالتراث الى حد الانفصال احياناً عن الحاضر .

وفي ضوء هذا الواقع جاءت بعض أعمال المرحلة ، مطابقة روحاً ومنهجاً للتراث ، لاسيما المصنفات التاريخية التي التزمت بحرفية النص ، دون ان تتوغل في اعماقه او تمس عناصر الضعف فيه . و هؤلاء قد يمثلهم حسن ابراهيم حسن و أحمد امين بوجه خاص ، إذ أن كلاهما ، على أهمية ما قدمه من أعمال ، كان مشدوداً ، ليس فقط نحو التراث ، ولكنه أقام تحت سقفه و تحدث بلغته و احترف اسلوبه . ومن اللافت هنا ان الدراسات التي ظهرت ما بين الثلاثينات و الخمسينات من هذا القرن ، سلّم اصحابها - باستثناء طه حسين - بوجود ابن سبأ و حركته ، فيما اهتزت هذه النظرة لدى المؤرخين المعاصرين الذين كانوا اكثر التزاماً بالقواعد المنهجية من الجيل السابق . ويعود ذلك الى طبيعة المرحلة الجديدة و ثقافتها و التيارات الفكرية المتصارعه فيها ، مما شكّل دفعاً لحركة البحث العلمي التي كان للدراسات التاريخية نصيب وافر منها .

وستعرض هنا لمجمل الآراء في قضية ابن سبأ ، من خلال أبرز المراجع التي تناولتها ، وذلك بدءاً باصحاب الاتجاه الاول المسلّم بها :

المنحازون الى الرواية

أ- حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي .

يعتبر هذا المؤرخ أن الخلل الذي أصاب الدولة الاسلامية " نتيجة لسياسة عثمان المالية وما أسفر عن ذلك من ظهور طبقة أرستقراطية وطبقة اخرى فقيرة معدمة انشأها عمّال عثمان"^١ ، دفع بالمسلمين الى " التمرد في المدينة وفي جميع الامصار ، فكان هذا الجوّ ملاءماً تمام الملائمة و مهيناً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ ومن لفّ لفه والتأثر بها الى أبعد حد"^٢ . هكذا يظهر فجأه هذا الداعية ومن دون أي مقدمات تجعلنا على معرفة ما بطبيعة دوره و اهدافه ، فضلاً عن اسباب حملته على الخليفة . وإذا تجاوزنا قناعات المؤرخ حسن بصدد هذه القضية ، فإن منطق الحدث سرعان ما يهتز لديه ، آخذاً به الى التناقض حين يقول : ان الثورة على

^١ تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٥٨

^٢ المكان نفسه

عثمان أذكأها "صحابي قديم اشتهر بالورع و التقوى - و كان من كبار أئمة الحديث - و هو أبو ذرّ الغفاري الذي تحدى سياسة عثمان و معاوية و اليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء هو عبد الله بن سبأ ، و كان يهودياً فاسلم " ^١ .

و الغفاري الذي كان ينتمي اساساً الى تيار مناهض لعثمان منذ بيعته بالخلافة و ربما قبل ان يعتنق ابن سبأ الاسلام (تقول الرواية أنه اسلم في عهد عثمان) ، من الصعب القبول بأن حركته انطلقت بتحريض من هذا " الداعية اليهودي " . و المؤرخ حسن لا يخرج عن اطار رواية سيف ، ولكن كونه ينتمي الى منهج الرواية الخبرية إذا جاز التعبير ، لا يستطيع ضبط الإيقاع في سياقه الذي يبدو مرة أخرى عرضة للاختلال أو التناقض، عندما يعقد الريادة في حركة المعارضة لابن سبأ و يصفه بـ " اول من حرض الناس على كره عثمان " ^٢ ، متجاهلاً ذلك التيار الواسع الذي أخذ يتفاعل فيه هذا الشعور، قبل ظهور الداعية السبئي الطارئ فجأة على المدينة . فهو يرى أن عوامل النقمة تفاعلت في نفس أبي ذرّ ، حتى جاء ابن سبأ فعمل على اطلاقها حيث وقع الاول في شرك الثاني ، او استدرج للوقوع فيه . و هو ما عبّر عنه المؤرخ حسن بقوله : " لقد

^١ انظر الكتاب ج ١ ص ٣٥٨

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٣٥٩

وجد ابن سبأ الطريق ممهدة لخلعه (عثمان) . ولسنا نشك في حسن نية أبي ذرّ ، وما كان من استيائه من عثمان ومن سياسته . فقد كان مصدر استيائه ما كان يعتقد في عثمان هوادة في الدين و تهاون في احكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ ^١ .

ولعل هذا المؤرخ استبق الأمور و ذهب في اعتقاده بأن حركة الغفاري كانت تدعو الى خلع عثمان ، وهو ما لم يرد على لسان صاحبها أو يلمح اليه على الاطلاق . فقد كانت منطلقاته تصحيحية في الأساس ، و لا يرنو من خلالها الى ما يتعدى تصويب مسيرة الخليفة باتجاه العدل بين رعيته . بل أن مثل هذا الهدف لم يراود قادة الأمصار الذين جاعوا بنفس الحافز الاصلاحى الى المدينة ، ولم يجرؤ أحدهم على التفوه بما يشير الى خلع الخليفة ، ذلك الذي جاء فيما بعد نتيجة للأجواء المشحونه في عاصمة الخلافة ، ولم يكن قائماً في وعي الثائرين من قبل .

والمؤرخ حسن يعطي الرواية حجماً قد لا تحتّله لدى الطبري، خصوصاً ما تعلق بدور ابن سبأ في الأمصار : (حقق ابن سبأ ما كان يرمي اليه من تأليب الولايات الاسلامية على عثمان) ^٢ . وهو امر أوحى الرواية بعكسه ، ربما باستثناء مصر التي وجد فيها على ما يبدو

^١ انظر الكتاب ج ١ ص ٣٥٩

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٣٦٢

أرضاً خصبة لدعوته ، وذلك لشدة " سحق أهلها على عثمان و على عبد الله بن سعد بن أبي سرح " ^١ استناداً الى قول المؤرخ حسن. وهو من هذا المنطلق يكاد يجعل ثورة " المصريين " من نتاج الدعوة السبئية التي اندرج فيما اثنان من أكثر المتحمسين لعلي وهما : محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ^٢ . وينسب الى الثاني أنه " قام بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ " ^٣ ، على نحو يصبح عليّ وكأنه ليس بعيداً عن هذه الخطة التي استهدفت إطاحة الخليفة عثمان وفقاً لتصور هذا المؤرخ .

إن حسن إبراهيم حسن ، وهو الأقرب الى الاتجاه التقليدي في تفسير التاريخ ، تندرج هذه الرواية في كتابه ، شأن بقية الروايات دون ان يخالجه الشك مطلقاً بذلك البروز المفتعل لابن سبأ في قلب الاحداث . وعلى العكس من ذلك ، فقد اضفى عليها من الأجواء ما أسهم في دعمها وتعزيز حدوثها . و لعله كان أكثر مؤرخي هذا الاتجاه اهتماماً بهذه المسألة، مما يتجلى في الحيز الذي اتخذته في سياق الفتنه ، والتداخل المباشر معها ، خصوصاً في تفاصيلها الاخيرة .

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٣٦٠

^٢ المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦١

^٣ المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٢

ب - أحمد أمين : فجر الاسلام - ضحى الاسلام .

لم يقف طويلاً هذا الكاتب عند قضية ابن سبأ ، وهو أمر لم يكن خاضعاً لموقفه من الأخير ، بقدر ما هو مرتبط بالموضوع الذي يخوض فيه ، إذ أن أمين يهتم أساساً بمادة الحضارة الاسلامية ، ولا يعنيه من التاريخ سوى الاطار ، ومن أحداثه إلا الوظيفة في خدمة الهدف الذي تتوخاه دراساته ، في الفقه و الأدب و العلوم وما الى ذلك . وهو عموماً يفتقد الى منهج المؤرخ وينجح عن القواعد و الضوابط فيه ، لاسيما التوثيق الذي تكاد تخلو منه الهوامش ، مقتصرة في الغالب على توضيحات لغوية ليس أكثر . على أن هذا الكاتب ، وقد جال في موضوعاته على مساحة التاريخ ، لم يكن باستطاعته الانفصال عنها ، حتى يُدرج أحياناً بين المؤرخين ، لما يثار حول احكامه من جدل في هذا المجال . ولعلّ مُرد ذلك ، الى أنه قرأ التراث بعيني اديب و ليس برؤية المؤرخ الواقعية ، الامر الذي أخذ به احياناً الى الانحياز و الإنحراف عن الموضوعية المجردة .

وفي ضوء هذا المنهج يتعرض أمين لشخصية ابن سبأ و دعوته في سياق الفصل الثاني من " فجر الاسلام " وتحت عنوان " الشيعة " ، ممهداً لذلك بالحديث عن تكون فكرة " الوصية " عند هذه الفرقة ، تلك التي

كان برأيه ، عبد الله بن سبأ أول المروّجين لها في دعوته الى " تأليه " علي^١.

ومن اللافت هنا ، أنه لم يعد الى الرواية في " تاريخ الطبري " و التي لم يرد فيها ما يشير الى فكرة التأليه ، بل اعتمد على ما اورده ابن حزم بشأنها، دون ان يكون الاخير وهو فقيه وله في النتيجة موقف خاص ، المصدر الصالح لهذه المسألة . يقول امين : " والذي يؤخذ من تاريخه (ابن سبأ) أنه وضع تعاليم لهدم الاسلام وألّف جمعية سرية لبث تعاليمه و اتخذ الاسلام ستاراً يستر به نيّاته ... و أشهر تعاليمه الوصاية والرجعة"^٢ وبعد شرح مقتضب للفكرتين الأخيرتين لدى " السبئي " وجذور الرجعة خصوصاً في العقيدتين اليهودية و النصرانية ، ومن ثم تطورها عند الشيعة الى العقيدة"^٣ ، يعود الى زج فكرة " الالهية " دوغما تسويغ لهذا الاستنتاج غير المبني على مادة خاصة بهذا الموضوع . ومن ذلك قوله : " والناظر الى هذا يعجب للسبب الذي دعاه (ابن سبأ) الى الاعتقاد بالوهية علي ، مع أن احداً لم يقل بالوهية محمد (ص). وعلي نفسه يصّر بالاسلام وتبعيته لمحمد(ص) . والعلة في نظرنا - والكلام ما زال لأمين- أن شيعة

^١ فجر الاسلام ص ٢٦٩

^٢ المكان نفسه

^٣ المرجع نفسه ص ٢٧٠

علي رأوا فيه من المعجزات و العلم بالمغيبات الشيء الكثير ، و قالوا انه كان يعلم كل شيء ، و وضعوا على لسانه ما جاء في نهج البلاغة :
اسألوني قبل ان تفقدوني"^١ .

ولعل هذا الكاتب ، وهو يتحرك في سياق موقف خاص لم يأت مبنياً على الوقائع بقدر ما يعبر عن افكار لا تنطلق منها في نفسه ، يشكك هنا في نسبة " نهج البلاغة " لعلي ، كما يحتمل عبارته الشهيرة السابقة "اسألوني قبل ان تفقدوني" مغزى الهياً " ليس فيها ، لتسويغ اجتهاده في هذا السبيل . ذلك ان علياً وهو المتصف بإجماع الروايات - بعلم لم يصل الى مستواه احد في زمانه ، ومن ثم بمعرفة بالاسلام جعلت الخليفة عمر ابن الخطاب يعود اليه في المسائل الصعبة ، انما كان يعبر عن هذا الموقع في العبارة السابقة ، وليس الى " علم المغيبات " كما اشار الكاتب .

وثمة ما يثير الريب في الواقع هو المنهج ذاته لدى أمين ، بأدراجه هذه المسألة ، على نحو لا يخلو من اللبس المتعمد ، إذ يختفي اسم السبئي بعد ذلك ولا يشار الا ضمناً اليه ، كما في حديث الكاتب عن التنبؤات قائلاً: "وروا له أنه أخبر بقتل الحسين و أخبر بكر بلاء و أخبر بالحجاج و أخبر بالخوارج و مصيرهم ، و بني أمية و ملكهم ، و أخبر ببني بويه و أيام

^١ المكان نفسه

دولتهم ، وأخير عبد الله بن العباس بأنتقال الامر الى اولاده ...^١ .
فهو - أي الكاتب - عدا انه لم يسند هذه الاخبار - الغيبيات الى
مصادرها ، فإن المقصود هنا الشيعة الذين اقتبسوا - برأيه - مثل هذه
الافكار من العراق ، حيث الاكثرية من هذه الفرقة كون هذا الاقليم
"منبع الديانات المختلفة و المذاهب الغريبة " حسب تعبيره^٢ .

وفي ضوء ذلك يستخدم احمد أمين شخصية ابن سبأ لإبراز فكرة
"الالوهية " لعلي و الحديث عن "المعجزات" التي زعم أن الشيعة ألصقوها
به . بل أنه لم يميز بين الشيعة و الغلاة منها، و الذين آمنوا بمثل هذه
الأفكار في وقت متأخر عن المرحلة التي يخوض فيها الكاتب . ومن هنا
فهو لا يضيف جديداً الى هذه المسألة ، بل انه فيما جنح اليه ، ابتعد كثيراً
عن موضوع ابن سبأ ، وترك من اللبس حول الاخير ما كان محاطاً به في
الاساس، هذا على الرغم من تسليمه المطلق بوجود هذه الشخصية .

أما في كتابه الآخر (ضحى الاسلام) فيكتفي من أخبار السبئي ما
تعلق بدوره في الشام ، مؤازراً حركة الصحابي ابي ذرّ الغفاري . وقد
تطرق هنا الى الجانب النظري في دعوة ابن سبأ بوصفه " صاحب القول

^١ المكان نفسه

^٢ المرجع نفسه ص ٢٧١

برجعة النبي الى الدنيا ووصاية علي على الخلافة"^١ . ثم يضيف بشأن موقف معاوية منه : " بعد أن داراه فأعياه ، فلما يئس منه ومن ترغييه او ترهييه ضيق عليه ثم أقصاه"^٢ .

ولعل مثل هذا الموقف يحتاج الى تسويق لا يتطابق مع نظرة معاوية الى الخارجين على النظام . ولو عدنا الى الرواية التاريخية لن نجد فيها ما يشير إلى "مدارة" والي الشام لابن سبأ ، أو الى يأس الأول من "ترغيب" الثاني قبل اقصائه ، إذ جاءت على هذا النحو : " فلم يقدر (ابن سبأ) على ما يريد عند أحد من اهل الشام ، فأخرجوه حتى اتى مصر"^٣ .

وإذ يكتفي أمين بهذا القدر من قضية ابن سبأ ، فإنه ينصرف بعد ذلك الى تتبع أحداث الفتنة ، لافتاً بشكل خاص الى جهود معاوية في احتواء قبائل الشام ، بما يمهّد الى مشروع دولته التي انطلقت من عباب الأزمة العاصفة بعهد عثمان . وبناءً على ذلك لا يشكل موقف الكاتب من ابن سبأ مادة للنقاش ، سوى انه من المسلّمين به و بدوره الدعائي لمصلحة علي وتأكيد وصايته على الخلافة . وهو لا يختلف في نظرتة عن معاصره حسن ابراهيم حسن ، إذ كلاهما ينتمي الى مدرسة واحدة ،

^١ ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٧١

^٢ المكان نفسه

^٣ الطبري ج ٤ ص ٢٤٠

وهي القائمة على الأخذ بركام الروايات التاريخية ، دون الالتفات إلى ميول اصحابها او اكتناه مواقع اللبس فيها ، مع الفارق أن حسن كان يعنيه ، كمؤرخ الجانب الحديثي في الرواية ، فيما كان هاجس امين توظيف الجزء المناسب منها في مادة لا تخلو من افكار ، ربما كانت "جاهزة" لديه من قبل .

ج- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الاسلامي .

يبدأ هذا المؤرخ متناقضاً مع نفسه ، فيرى أن "جِلْم" عثمان و"حياءه" شجعاً على الفتنة^١. ثم يتحول بعد ذلك منتقداً بقوة - وإن بصورة غير مباشرة- الخليفة (عثمان) الذي توكأ على تراث سلفه واستمد منه الوهج خلال النصف الاول الهادئ من عهده : "وسارت الامور في السنوات الاولى من خلافة عثمان ، مدفوعة بالقوة التي بذلها ابن الخطاب وظلّ الضوء الذي اشعله عمر ينير للناس ، ولكن الخليفة الجديد لم يمدّ المصباح بالزيت ، فلما أوشك الزيت ان يجف بدأ الظلام يدخل ... (و) بدأت الدولة تهتز وأخذت المشكلة تستعصي. ، وتقدم

^١ موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٦٢٥

الناصحون للخليفة يطلبون منه الاعتزال و الراحة ، ولكن الخليفة صاح بهم قائلاً: كيف اخلع قميصاً البسنيه الله" ^١ .

وليس الغرض هنا الدخول في تفاصيل الفتنة ، وإنما الذي استوقفنا هو ذلك الخلل في منهج المؤرخ شليي الذي تخونه الحبكه فيوغل في التناقض ، وإذا بالثورة ليست من محصلات الفترة الثانية من خلافة عثمان أي بعد ان جف الزيت من المصباح حسب تعبيره ، وإنما تصبح كامنه في النفوس منذ عهد الخليفة عمر . هذا ما ينضح به قوله على الاقل حين يتابع تقويمه للمرحله : " وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التي سببت حق الناس و غضبهم ، لم تظهر الا بعد ست سنوات من حكمه ؛ لا ، فقد ظهرت في اللحظات الاولى ، ولكنها كانت اشبه بالمرض يدب في الجسم السليم فيقاومه الجسم " ^٢ .

وهكذا بدلاً من توضيح الصورة ، إذا بالأخيرة تحجبها الغيوم آخذةً معها التفاصيل المعروفة ، على نحو ما اورده المؤرخ شليي عن تقدم "الناصحين" للخليفة طالبين منه التنازل عن الحكم . ذلك أن هؤلاء لم تراودهم هذه الفكرة التي جاءت وليدة التطورات الاخيرة بعد الحصار لدار عثمان . فهل كان علي الاكثر " نصحاً " للخليفة ، ممن خاطبه بهذا

^١ المكان نفسه

^٢ المكان نفسه

الامر ؟ هذا ما لم تشر اليه مطلقاً الروايات التاريخية. وعلى العكس من ذلك كان من اهدافه الاساسية (علي) إبان تدخله في الأزمة ، تفادي الوصول الى هذا الخيار ، حرصاً منه على موقع الخلافة التي ستصبح - لو حدث ذلك - تحت رحمة المغامرين و الطامعين الى النفوذ . و المؤرخ شلي لم ينفي هذا الواقع ، معترفاً في الوقت نفسه أن عثمان قد تورط في الخط الذي سار فيه ، و بدا فاقداً القدرة على الحوار الفعلي مع الجماعة الاسلامية ، بل ومتبرماً من توسط عليّ بينه و بين الشائرين. يقول هذا المؤرخ : "وكان علي كلما اشتكى الناس اليه أمر عثمان ، أرسل ابنه الحسن اليه . فلما اكثر عليّ عليه قال له عثمان : إن اباك يرى أن احداً لا يعلم ما يعلم ، و نحن اعلم بما نفعل فكف عنا ، فلم يبعث عليّ ابنه في شيء بعد ذلك" ^١ .

و على الرغم من هذه الاجواء التي ينشرها المؤرخ شلي وما ساد فيها من نقمة على سياسة الخليفة و تحفز للتمرد عليه ، فإنه لا يتردد في تجيير هذه الموجة لرجل لم نر له مكاناً فيها من قبل ، وهو عبد الله بن سبأ . افلا يسقط مرة أخرى في شرك التناقض ؟ قد لانجد صعوبة في اكتشاف ذلك ، لاسيما بعد انتقاله من دون مقدمات الى الحديث عن الدور

^١ المكان نفسه . أنظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٤٤ ص ٢٠٨

القيادي البارز لهذا الرجل ، فيقول: " واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظّموها في الكوفة و البصرة ومصر يعلنون ما كانوا من قبل يضمرون ، و ظهر مع الثائرين اعلام من الصحابة انكروا بعض تصرفات عثمان ، فأسرع ابن سبأ ، وهو الزعيم الحقيقي للثورة ، فأجتذبهم او اجتذب آراءهم اليه لتقوى بهم حخته و ترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابة : ابو ذرّ الغفاري وعمار ابن ياسر و عبد الله بن مسعود" ^١ ثم يضيف في هذا السياق قائلاً : " و عبد الله بن سبأ هو الشخص الذي نقل الثورة من الكلام الى العمل ، ولم يكن ابن سبأ مخلصاً في حركته ، فقد كان يهودياً ادّعى انه دخل الاسلام و لم يكن يضمّر للإسلام و لا للمسلمين خيراً ، فانتهاز هذه الفرصة ليشعل الفتنة و ينزل بالعالم الاسلامي ناراً ظلّت متأججة عشرات السنين" ^٢ .

وهكذا يمضي المؤرخ شلي في اسناد هذا الدور البارز لابن سبأ الذي اخترق - كما صوّره - صفوف الصحابة وشدّهم الى افكاره و الى زعامته ، وهو اليهودي المدّعي للاسلام . كما يضيف على حركته نكهة " فارسيه" عندما يقوم (أبين سبأ) بالترويج لقضية علي ووصفه بأنه " خاتم

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٢٥ - ٦٢٦

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٢٦

الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء" ^١ ، انطلاقاً من تأثيره -حسب رأي المؤرخ - بالفكر الفارسي في موطنه الأصلي باليمن ^٢ التي كان يحكمها عشية الاسلام " الأبناء" الفرس . أما هدفه (ابن سبأ) فهو ضرب الاسلام من خلال الدعوة لشخصية تتمتع بالثقة (علي)، وجمع العدد الأكبر من المسلمين حوله. فلما رفض علي الانسياق في الثورة على عثمان و تصدى - حسب المؤرخ شلي - " للجموع الساخطة وشرح لهم أن أي اعتداء على الخليفة هو اضعاف للإسلام و تفرقة للمسلمين ادرك ابن سبأ أنه هُزم وأن الفرصة التي عمل لها سنوات أوشكت ان تضع ، ولذلك اعمل الحيلة و دبّر أمره ، فيروى أن الثائرين حال عودتهم رأوا رجلاً اسود يمشي على بعدٍ منهم و أنه يحاول ان يختفي عنهم، فشكوا في امره، فلحقوا به وقبضوا عليه وفتشوه، فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان، وفي الخطاب أمر لوالي مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين" ^٣

ومن اللافت أن شلي يقتبس هذه المعلومات عن المستشرق الالماني بروكلمان ^٤ ، في حين ان الطبري الذي ذكر تفاصيلها انطلاقاً من رواية

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٢٧

^٢ المكان نفسه

^٣ المكان نفسه

^٤ المكان نفسه

سيف ، لم يشر الى هذا " الرجل الأسود " الذي " اكتشف " فيه المؤرخ شخصية ابن سبأ (ابن السوداء في المصادر). فقد جاء في الرواية : " ثم رجع المصريون راضين فبينما هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع اليهم قالوا له مالك؟ إن لك لأمرأ ! ما شأنك ؟ قال : أنا رسول امير المؤمنين الى عامله بمصر ، ففتشوه ، فأذا هم بالكتاب على لسان عثمان ، عليه خاتمه الى عامله بمصر ان يصلبهم او يقتلهم " الخ ' .. وهكذا يتصرف شلي بالرواية ويخضعها لمصلحة ذلك الدور "الاسطوري" الذي قام به السبئي " الخارق " ، في قيادة الجموع الساخطة على عثمان . فهو ليس موجهاً عنده للثورة او متصدراً لها فقط ، وإنما هو حاضر كذلك في تفاصيل خطوطها ومنفذ في الوقت نفسه لدقائق مهماتها . و من الطريف ايضاً انه - اي الشلي - في احد الهوامش ، و في محاولة للتخفيف من اندفاعه في تضخيم الدور الذي تبوأه ابن سبأ ، يلجأ الى الفصل بين " الشيعة الحقيقيين وبين مدّعي التشيع " ^٢ الذين انحرف بهم الداعية اليهودي . وفي هذا المكان يتعرض لكتاب مرتضى العسكري وما ذكره من اختلاق لرواية سيف ، الا أنه يتفادى الرد المباشر عليه ، وينتهي الى ترسيخ اعتقاده بوجود ابن سبأ ، مكتفياً بمناقشة الاسم الذي حمله

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٥٥

^٢ موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٦٢٦

الاخير إذا كان صحيحاً او مفتعلاً ، وكأن العسكري لا يبغي سوى هذه المسألة بالذات . فهو يقول بشيء من الحسم في هذا الصدد : " فأنا اقرر هنا أن ضالة بدأت هذا الشوط هي عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم ، وأن مریدین كثيرین أخذوا عنه هذا الضلال و ساروا فيه أزمنة طويلة و أشواطاً واسعة . فالاسم لا يهمنا ولكن يهمنا أن شخصاً قام بالدور الذي نسب الى عبد الله بن سبأ وأن اشخاصاً قاموا بالادوار التي تنسب للسبئيين و لأعداء الشيعة و أعداء الاسلام"^١.

د - عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن ابي طالب .

من المعروف أن هذا الكتاب الذي استمد شهرته من أن صاحبه شيخ أزهرى ، و في نفس الوقت معجب حتى الأفتان بشخصية علي ، لا يمثل دراسة علمية موثقة ، وإنما هو اقرب الى الرواية التاريخية ، حيث تتوفر عناصرها الفنية الاساسية أو الكثير منها فيه ، دون أن ننسى الاسلوب الشائق الذي يرتقي أحياناً الى مستوى الجملة الشعرية الآخذة . و في ضوء ذلك لا تصطدم شخصية ابن سبأ بأي عائق ، للدخول في نسيج

^١ المكان نفسه (هامش <١>)

السياق على مساحة جزء من الكتاب، و سرعان ما تفرض نفسها كشخصية بارزة بين أبطال " الرواية " .

ولكن " الشيخ " إذ يعيد صياغة النص التاريخي بأسلوبه الخاص ، تفادياً لما يعكر الانسياب فيه ، فإنه يلتزم بجوهر النص و لا ينحرف عنه، على نحوٍ تصبح التفاصيل كاملة في حوزته ، كذلك الأجواء المحيطة بالحدث واضحة لا يشوبها غموض . وفي البصرة يكون " المشهد " الأول حيث " بقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر الإصلاح المنشود أجل ففي هذه الناحية من الدولة الاسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة في تاريخ الاسلام . جاءت كالسموم على يد اسود من إحدى الدويلات التي أنفت حتى في ايام النبي أن تخضع لحكم البلاد المقدسة وحاولت أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها ابن ابي طالب على الطاعة ... من اليمن جاءت ، وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كالسم . وانطلق بها الرجل الى الحجاز يَهم أن يَئثها ، لولا أن وجهه ذكاؤه الى بلد أكثر تقبلاً للدعوه من مهد الدولة و أبعد عن أيدي الخليفة و أعوانه بالمدينة أن تمتد اليه . فقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحي

الضعف التي يستطيع أن ينفذ منها اليهم ، ملماً بأحوال البلاد التي انتظمها الاسلام تمام الامام فعرف أي تربة من بينها يمكن ان تنمو فيها بذوره" ^١ .
ولعل "الشيخ" ، وإن تمرد على نهج سربه متفرداً بذكر النبي من دون الرمز المؤلف المضاف - خصوصاً لدى الشيوخ - الى اسمه، فإنه يلتزم بروح النص التاريخي ، متأثراً هذه المرة بطريقة أقرانه عندما يسوق الحدث على انه حقيقة لا يشوبها ريب . وإذا كان من غريزة المؤرخ ، ربط الوقائع ببعضها ، فإن الشيخ الذي توخى دائماً إبراز شخصيته - محور الموضوع، ربما تورط في زج عليّ في هذا السياق ، إذ على المؤرخ حينئذ أن يتساءل إذا كان عبد الله بن سبأ قد عرف شيئاً عنه (علي) ، خلال المهمة التي قام بها لحمل اليمنيين (قوم ابن سبأ) على الطاعة ، مما دفع الأخير الى التأثير به ، ومن ثم الدعوة له كوصي للنبي بعد فترة قصيرة ؟ ولكن "الشيخ" سرعان ما يتعد عن هذا الظن ، ليؤكد أنه غير مأخوذ بفضول المؤرخ ، فيتابع محاولة اختراق الداعية - الذي " خلع ثياب دينه القديم و أظهر الدخول في الاسلام " ^٢ - لمجتمع المدينة ولكن "دعوته - والكلام للشيخ - إن جازت على بعض النفوس في الحجاز ، فلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن ابي طالب فتح شفتيه ، وما كان له أن يأمن

^١ الامام علي ج ١ ص ٦٠ - ٦١

^٢ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٣

علياً السكوت ، فضلاً عن موافقته و رضاه ، لأن خلقه الكريم حرّى بأن يثيره على الدعوة و يدفعه لحربها باللسان و بكل سلاح ، وإن كانت في ظاهرها قد جاءت لتضع في يديه السلطان"^١.

وهكذا تصبح البصرة المنطلق الفعلي لابن سبأ ، يشجعه على ذلك وجود وال لا ينظر اليه أهلها بارتياح وهو عبد الله بن عامر . فكانت ارضاً خصبة - برأي الشيخ - لبث افكاره الهدامه " عازماً امره على تقويض بنيان الدولة الاسلامية"^٢. وسرت دعوته كالسحر بين المسلمين في البصرة ، فكاد الزمام يفلت من يد الوالي الذي تنبه أخيراً لخطورته ، ولم يجد بداً من نفيه والتخلص من هذا "الوباء" الذي انتشر سريعاً في ولايته .

و "المشهد" الثاني في الكوفة جاء مقتضباً ، لأن واليها (سعيد بن العاص) وقد اتعظ بتجربة البصرة ، لم يلبث ان طرده (ابن سبأ) ، ليمضي الاخير " بوفاضه المليئ بالخباثت الى الشام ، الأرض التي احتواها معاوية في قبضته"^٣. فما كاد يباشر التحرك حتى كان خارج الولاية الهادئة ، آخذاً طريقة الى مصر . و " المشهد " الثالث الاساسي كان هناك ، حيث- و الكلام للشيخ - " انتهى المطاف بالسبئية ، فحط

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٦٣

^٢ المكان نفسه

^٣ المرجع نفسه ج ١ ص ٧٢

شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته تنمو مع الزمن وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الاسلامية ، تنتشر انتشاراً نامياً على يد الرسل و الرسائل وتمد سلطانها في البلاد كما تمتد أذرع الاخطبوط ^١ .

وعلى هذا النحو تنتهي السبئية فصلاً في كتاب الشيخ عبد المقصود عن الامام علي ، متبوعاً بدقة مسارها والمخططات الاساسية فيه ، كما وردت تماماً في رواية سيف في تاريخ الطبري . فهو يعرض لها كحركة "هذّامه" تستهدف تقويض الاسلام و دولته ، وفي نفس الوقت يحرص على الفصل بينها وبين علي ، وإن كانت تعمل له وتكرس افكارها لمصلحته . على ان عبد المقصود ربما جنح الى المبالغة في تصوير الهالة التي اصبحت لها في ولايات الخلافة ، خصوصاً في البصرة التي اثبتت بعد وقت قصير أنها خارج هذا التصوّر ، بدليل رفعها راية العصيان مبكراً على علي . كما ان ما ورد من تهافت الناس على هذه الدعوة ، لا تعبّر عنه مطلقاً الرواية التاريخية ، هذا إن لم يكن متناقضاً معها ^٢ .

وهذا يعني أن عبد المقصود كان يحمل النص التاريخي أكثر مما يستطيعه ، وذلك استجابةً لمنهج الكتاب - الرواية ، وما يكتنفه من صخب ملائم للمناخ " الدرامي " فيه . وهذا الكتاب لا يندرج حكماً

^١ المرجع نفسه ج ١ ص ٧٤

^٢ الطبري ج ٤ ص ٣٢٦ - ٣٢٧

في مصاف الدراسات التاريخية التي تقوم على تحليل الرواية وربط عناصرها بصورة دقيقة ، مما يسهل الوصول الى النتائج العلمية المقنعة . ولن تكون حركة ابن سبأ خارج هذا التقويم ، خصوصاً وأن الكاتب لم يبحث في اسبابها ، مما يتعدى مضمون الرواية التي جاءت طافية على سطح الاحداث ولم تكن في صميمها بالفعل . كذلك لم يتطرق الى نتائجها التي ظلت بدورها غامضة ، على الرغم مما ختم به القول عن الحركة السبئية ، بأنها امتدت في البلاد امتداد " أذرع الاخطبوط " .

هـ - عباس محمود العقاد : عبقرية عثمان .

هذا الكاتب ، وهو مصنف بين افذاذ عصره من كبار الأدباء والمفكرين ، دخل حلبة الدراسات التاريخية وترك آثاراً "خالدة" فيما كتبه من سير الخلفاء ، وبعض قادة الاسلام ، وهي التي اندرجت تحت عنوان " العبقریات " . وكان ذلك من سمات هذه المرحلة إذ توزعت اهتمامات الكاتب بين الادب و النقد و الفلسفة ، دون أن تنأى عن التاريخ الذي ربما كان الخوض فيه ، منطلقاً من الحافز الديني الى جانب

الرغبة في إعادة قراءة أحداثه بصورة أكثر عقلانية مما كان لدى الأسلاف . ولكن الالفت أن المنهج ، وإن اختلف قليلاً لدى كُتّاب المرحلة ، فإنه ظل محكوماً برؤية الأديب و لم يلتزم بقوانين البحث التاريخي و شروطه . نستثني من بين هؤلاء طه حسين الذي ربما كان لدراسته (العليا) عن ابن خلدون و المعري تأثير على منهجه ، فبدأ حريصاً على إبراز الرواية و توثيقها ، و التوغل فيها أحياناً كثيرة بنظرة المؤرخ اللّماحة ووعيه المرهف ، لتجني أعماله قراءة جديدة بالفعل لبعض المحطات الاساسية في التاريخ سواء في الاسلام أو ماقبله .

تحت عنوان " و بعد الصدمة " يدلف العقاد الى موضوع " الفتنة " التي ظهر في ثناياها عبد الله بن سبأ ، و لكنه في منهاجه يميل الى الاختصار و يؤثر الاهتمام بمعاني الأحداث من دون تفاصيلها التي لاغنى للمؤرخ عن الابحار فيها للقيام بدوره . فالدلالة هي ما يعنيه وليس الحدث بعينه ، و لذلك يسارع الى القول مفسراً ما جرى في ذلك الوقت على هذا النحو : " وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة و تمحيص اسبابها و عواملها و تبعات المسؤولين عنها ، فالصعوبة الكبرى اننا في هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منها الى اسبابه وعوامله . ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متعدد الاسباب و العوامل، هذان الحادثان هما : التطور السياسي و مقتل عثمان .

وأسباب هذا لا تكفي لتعليل ذاك ، و ليس من الحتم أن تؤدي اليه . و قد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء و أثره في هذه الفترة . فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك لأنهم اعتقدوا ان الانقلاب السياسي ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو انهم فصلوا بين الأسباب في كليهما لأمكن تقدير التبعة و الاستطاعة في عمل كل عامل و دسسية كل مشترك في المؤامرة . فإبن السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسي و غيره ممن هم أعظم منه شأنًا و اشد منه خطراً أهون من إحداث ذلك التطور كله ، لأنه يرجع الى أسباب متفرقة عميقة القرار ، كثيرة التشعب لا تضطلع بها قدرة رجل واحد و لاعدة رجال متألين متواطئين . و لكن مقتل عثمان شيء آخر غير التطور السياسي ، و في وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترف بيده و أيدي من يستمعون لتحريضه و دسيسته ، لأنه في حقيقته " مشاغبة" من مشاغبات الدهماء التي لا تعجز عن امثال هذه الأفاعيل " ^١ .

والعقاد هنا يملك النظرة الثاقبة للمؤرخ ، وإن لم تكن على المساحة المباشرة للرواية التاريخية . فهو يخالف المؤرخين أو بعضهم ، في ربط

^١ عبقرية عثمان ص ٣٢

المتغيرات في دولة الاسلام بمقتل عثمان الذي جاء نتيجة مؤامره محبوكة تفاصيلها حسب رأيه . و إذا كان من الصعب فصل حادث عن آخر ، لاسيما خلال تلك الفترة التي انعكست مؤثراتها بصورة مباشرة على المجتمع الاسلامي ، فإن العقاد كما يبدو يؤسس هنا - وإن بصورة غير مباشرة - لتهميش دور ابن سبأ و حصره بالتحريض على مقتل عثمان ، من دون أن تكون له مفاعيل أخرى على " التطور السياسي " الذي كان أبعد - برأيه - من هذه الحادثة العابرة . وعلى الرغم مما بنطوي عليه هذا التحليل من عمق ، يتعدى الدور المحدود للدعاية السبئي الى معطيات أكثر جذرية في تطورات المرحله و ما بعدها ، فإن العقاد لا يلقي ما يكفي من الضوء لإزالة اللبس الذي ربما تفاقم بعد مغادرة هذه الصورة المركبة . وهذا المنحى لا يتصل به موضوعنا الأساسي ، وهو بالتالي مفصول عن مقتل عثمان الذي يعتبره الكاتب " شيئاً آخر " غير متصل بالجذور . ولا يعنيه من هذا المنطلق أن يكون عبد الله بن سبأ ، شخصية حقيقية أم وهمية ، إذ يقلل من شأنه في الأساس ، خلافاً للشيخ عبد المقصود الذي يعطي له حجماً لم ينله في الرواية التاريخية أو الدراسات التي راكمت عليها . ولكن في النهاية يمكن ملاحظة استنتاجين هامين في بحثه (العقاد):

١- عدم الإنسياق وراء الهاله التي أعطيت لابن سبأ من جانب معظم المؤرخين والكتاب ، فلم تتعد من منظوره هذه المسألة "حادثة محلية قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء" ^١ .

٢- بناء على ذلك فإن مقتل عثمان ما كان ليحدث لو توفر القليل من الحماية العسكرية للخليفة، متهماً بصورة غير مباشرة والي الشام (معاوية) بالتقصير في هذه المسألة (إن عثمان ما كان يقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التي يقيم فيها ولاية الامور ، وإن هذه الجمهرة التي اقتحمت داره واجترأت عليه بالسلاح ما كانت لتقتل والياً من ولاته - كمعاوية بن ابي سفيان مثلاً - لو انها هجمت على داره وبين حرسه واجناده) ^٢ .

^١ عبقرية عثمان ص ٣٢

^٢ المكان نفسه

و - فلهوزن و فان فلوتن

هذا ما كان من امر الدراسات العربية الحديثة و المعاصرة المسلّمة بالدور الذي قام به عبد الله بن سبأ في سياق الفتنه الشهيرة ، و قد جاءت، على التفاوت في حجم المادة التاريخية ، مقتضبه بشكل عام و تفتقد الى العمق و النظرة التحليلية الثاقبة . ولعل العقّاد وحده خرج من حصار الرواية وقارب الاسباب الموضوعيه للفتنه، بمنأى عن الدور المنسوب للدعاية السبئي .

أما المستشرقون ، فكانوا اقل حماسة للخوض في هذه القضية ، ربما لأنهم وجدوا في الرواية التاريخية منحى لا يتفق مع نزعتهم العلمية واستنتاجاتهم التي تقوم على المقارنة. ومن اللافت أن يوليوس فلهوزن ، المستشرق الالماني الشهير ، تجاهلها تماماً في كتابه " تاريخ الدولة العربية"، حيث تدرج فيه مفصلةً أحداث الفتنه . وقد سجل مترجمه^١ ملاحظة هادئة عليه في هذا السبيل ، فأورد في الهامش ما نصّه : " والمؤلف أغفل ذكر الدور الذي كان لعبد الله بن سبأ (ابن السوداء) في اثاره الفتنه اولاً و تنظيم الاتصال بين الثوار في مختلف مدن الأمصار . ومهما قيل في دور ابن سبأ فهو مذكور في كتب التاريخ و لا يصح إغفاله^٢ .

^١ عبد الهادي أبو ريده

^٢ انظر الكتاب ص ٤٨ هامش <١>

على أن فلهوزن تدارك هذا " الاغفال " في كتابة الآخر (الخوارج والشيعة) ، إلا أنه لم يعد الى منطلقات السبئية في عهد عثمان ، بل أشار اليها في سياق الحديث عن حركة المختار الثقفي في الكوفة ، خصوصاً الى العلاقة الوثيقة التي ربطت الأخير بالموالي (الفرس) . و تكتسب اشارته اهميتها في نفيه أية علاقة بين التشيع و المصادر الخارجيه ، سواء كانت عبر الداعية السبئي (اليهودي) ، ام عبر المؤثرات الفارسية (الايرانية) التي نسبها البعض الى التشيع فيما بعد . يقول : فلهوزن : " أما ان آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين فهو لاسبيل الى الشك فيه ، وأما كون هذه الآراء قد انبعثت من الايرانيين ، فليست تلك الملاءمة دليلاً عليه ، بل أن الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك ، إذ تقول أن التشيع الواضح الصريح كان قائماً أولاً في الدوائر العربية ، ثم انتقل الى الموالي ، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر " ^١ . أما السبئية فأن فلهوزن يعتبرها إطاراً للكيسانية التي نُسب الالتزام بها للمختار ، رابطاً بينها وبين الهوية القديمة لإبن سبأ و لكن من دون التوقف طويلاً عند هذه المسألة ، مصرّحاً بأنه لايعيرها " من الاهمية أكثر مما تستحق " ^٢ . ولعله - أي فلهوزن - كان أكثر توغلاً في المنحى الفلسفي للسبئية ، فخاض في

^١ الخوارج و الشيعة ص ١٦٩

^٢ المرجع نفسه ١٧١

موضوعه " الرجعة"^١، و مؤثرات هذه الفكرة في العهد الاول من الخلافة العباسية .

ولا يتجاوز المستشرق الهولندي فان فلوتن هذا الاطار في موضوعه السبئية ، فيتناولها كفرقة دينية لها مشروعها السياسي الذي عبّر عنه أولاً المختار الثقفي . على أنه يعارض رأي فلهوزن بأن السبئية " يُسمون أيضاً الكيسانية"^٢ ويرى أن مسافة " تفصل ما بين العقيدتين فإذا كانت الاولى تمجّد الروح الالهية في (علي) وتجعل له نصيباً منها ، فإن الثانية اعتبرته رمزاً للمعرفة الالهية "^٣

وليس هدفنا بالطبع البحث في " العقيدة " السبئية وملابساتها ، ولكن اوردنا شيئاً من ذلك لإبراز المنهج الذي تناول من خلاله المستشرقون هذه المسألة . فكلاهما جاء متفقاً على إهمال العنصر التاريخي فيها ، لاسيما فلهوزن الذي لم يشأ التعرض لها برغم احتكاك موضوعه المباشر معها . وكما تبين فقد نوقشت السبئية لدى الاثنين في سياق حركة الثقفي ، دون أن يعود كلاهما الى جذورها في عهد عثمان .

^١ المرجع نفسه ص ١٧٤

^٢ المرجع نفسه ص ١٦٨

^٣ السيطرة العربية . ترجمة ابراهيم بيضون ص ٨٠

وإذ نكتفي بما أورده كل من فلهوزن وفان فلوطن عن السبئية ، وهما
من أوائل المهتمين بتاريخ المرحلة الأولى من الاسلام ، فإن ما جاء في
دراسات المستشرقين الآخرين ، لم يضيف جديداً بارزاً إليها . وقد انطلقت
جميعها من الرواية نفسها، وما انطوت عليه يندرج في السياق الفكري
وليس التاريخي الذي تطابق عموماً لدى المستشرقين ، مع النظرة التي
سادت معظم الدراسات العربية الى هذه المسألة .

المشكّون

أ- طه حسين : الفتنه الكبرى

إن موضوع السبئية ، وكما أشرنا سابقاً ، لا يمكن بحثه خارج نطاق المنهج الذي تبقى له على صعيد الدراسات التاريخية مقاييسه و ضوابطه ، ما لا نجده على المستوى نفسه في فروع العلوم الانسانية الأخرى . وقد ترافق تطور المنهج في الواقع مع انكفاء السبئية في الدراسات المعاصرة وتراجعها أحياناً الى حدّ الاختفاء أو التهميش ، وذلك بناء على ضعف الرواية مصدر المعلومة ، فضلاً عن ثغرات لا تحفى على الكاتب أو المؤرخ، المنطلق من نظرة ناقدة و موضوعية الى احداث تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ الاسلام .

و لعل طه حسين الذي عاد من فرنسا في مطالع القرن ، متأثراً بمناهج الكتاب الأوربيين ، و متعمقاً في فكر ابن خلدون ، مما تجلّى على الخصوص في كتابه " الشعر الجاهلي " الذي اثار ضجة مدوّية ، لاختراقه النمط المؤلف في الكتابه الادبية و التاريخية ، كان مؤهلاً لإعادة النظر في قراءة التراث بما يتلاءم و التفكير العلمي الهاديء و الرصين . فكما كان رائداً من هذا المنظور في دراسته الجريئة عن التراث الشعري للعرب قبل

الاسلام ، و الذي تصدى له المتزمتون بحرب شعواء ، كان كذلك في دراسته المتميزة عن " الفتنه الكبرى " التي تناولها في ضوء هذا المنهج الجديد ، ملامساً عمق المسائل ، ومنها الموضوعه السبئية التي كان اول من أثار حولها الشبهة و الارتياب . فأسّس لاتجاه جديد في حركة البحث العلمي ، يصبح معه الشك وسيلة إيجابيه لتفسير التاريخ و ليس عنصر إعاقه أو تشويش له .

ومن الواضح بدايةً أن شخصية ابن سبأ لم تأخذ مكانها الطبيعي في سياق بحثه ، بدليل انه كرّس لها سياقاً خاصاً ، لضعوبة اندماجها من منظوره في حركة المسار التاريخي للمرحلة . تتّعرف إلى ذلك بغير صعوبه في مستهل الحديث عنها ، إذ أن الكاتب لا يتعامل مع الرواية كحقيقة ، وإنما كواحدة مما هو معروف بالقصص التاريخي ، دون أن يرى ضرورة اسنادها الى مصدرها ، مكتفياً فقط باستخدام عبارة " قال الرواة " أو " قالوا " ^١ ، الاكثر ملاءمة لطبيعة منهجه .

يقول طه حسين : " وهناك قصة اكبر الرواة المتأخرون من شأنها وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين

^١ الفتنه الكبرى ١٣٨

المسلمين لم تُمح آثارها بعد ، وهي قصة عبد الله بن سبأ الذي يُعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء حبشي الأم ، فأسلم زمن عثمان ثم جعل يتنقل في الامصار يكيد للخليفة و يغري الناس عليه و يذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين و السياسة جميعاً^١ .

بهذه المقدمة يمهّد الكاتب لشخصية ابن سبأ ، منطلقاً من الرواية التاريخية المعروفة بشأنها ، و مضيفاً منذ البداية جواً تعبق فيه رائحة الشك قبل أن يتابع بالأنسياب ذاته تجوال السبئي على الامصار ، حيث التقى أبا ذرّ الغفاري و آخرين من الصحابة في الشام ، منتقداً عثمان و متحدثاً برجعة الرسول و وصاية علي . ثم يضيف الكاتب متعمداً اغفال الرواية ، فينسب القول الى " بعضهم " أن ابن سبأ " أحكم كيده إحكاماً ، فنّظم في الامصار جماعات خفية تستر بالكيد و تتداعى فيما بينها الى الفتنة ، حتى إذا تهيأت لها الامور وثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج و الحصار و قتل الإمام"^٢ .

وينتقل الكاتب بعد ذلك من الحدث كمادة خبرية الى تفكيكه و الوقوف نتيجة لذلك على عنصر المبالغة الواضحة فيه ، دون أن يخفي

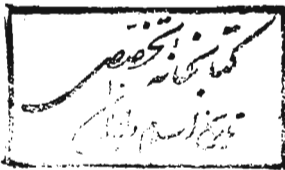
^١ المكان نفسه ص ١٣٨

^٢ المكان نفسه

استغرابه من إهمال المصادر الأساسية لهذه الشخصية فيقول : "ويجئ إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد ، يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ اسرافاً شديداً . و أول ما نلاحظه أنا لانجد لابن سبأ ذكراً في المصادر المهمة فلم يذكره ابن سعد ... و لم يذكره البلاذري ... و ذكره الطبري عن سيف بن عمر ، و عنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر"^١ .

لقد شككت هذه الإضاءة على شخصية ابن سبأ ، مدخلاً مهماً إلى عالم هذا " الداعية " الذي " أحترق " بجرأته الغريبة مسرح الاسلام وكأنه من رواده و سابقه الأوائل ، خصوصاً في الإشارة الرائدة إلى تفرد الاخباري سيف بن عمر في روايته عنها ، دون أن يقتنع بها المؤرخون الكبار ، باستثناء الطبري الذي وجد لها متسعاً بين رواياته الغزيرة . ومن هذا الباب يلج طه حسين بثقة إلى هذا الموضوع ، ليس مشككاً فقط ، ولكن نافياً أن يكون لمثل هذه الشخصية - وإن وجدت - ذلك التأثير في تطورات المرحلة :

"ولست أدري إذا كان لابن سبأ خطر في أيام عثمان أم لم يكن ، ولكني أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان



^١ المرجع نفسه ص ١٢٢

المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ، ولم يكذب يسلم حتى أتتدب لنشر الفتنة وإذاعة الكيد في جميع الأقطار"^١

و هذا منتهى التحليل الموضوعي للدور المنسوب لابن سبأ ، و الذي ألحنا اليه في القسم الأول من هذه الدراسة . فالمؤرخ يعجب في الواقع لتلك الليونة التي أبدتها ولاية عثمان في الامصار إزاء التحرك المشبوه لهذا الداعية . وإذا رجعنا الى الرواية التاريخية وما كان من أمر السبئي في البصرة ، فإننا لانجد في ردّة الفعل من جانب واليها ، ماهو متكافئ مع خطورة حركته ، إذ يأمره فقط بالخروج من البصرة^٢ . كذلك معاوية الذي خاطبه بهدو^٣ ، مما لا يتفق و اسلوبه المعتاد إزاء المشاغبين على الحكم في ذلك الوقت . وقد تنبه طه حسين لهذا الامر ، مستغرباً أن يقدم هذان الواليان بما عُرف عنهما من شدة على المعارضة ، على التعامل بمثل هذا الاسلوب مع " الرجل الخطير " ، فقال معلقاً على ذلك :

" ولو قد أخذ عبد الله بن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذي كان يهودياً فلم يسلم الاكائداً للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه الى

^١ المكان نفسه

^٢ الطبري ج ٤ ص ٣٢٧

^٣ المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٨٣

عثمان ، و لبطش به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذه عبد الله بن سعد ابن أبي سرح (والي مصر) ، لما أعفاه من العقوبة التي كاد ينزلها بالمحمدين (محمد بن أبي بكر و محمد بن أبي حذيفة) لولا خوفه من عثمان . والذي يكتب الى عثمان يستأذنه في البطش بابن أبي بكر و ابن أبي حذيفة وعمّار بن ياسر في بعض الروايات ، خليق الآّ يعفي من عقوبته رجلاً من أهل الكتاب قد اتخذ الاسلام وسيلة لإثارة الفرقة بين المسلمين و تشكيكهم في إمامهم بل في دينهم كله . ولم يكن أيسر من أن يتبع الولاة هذا الطارئ ومن أن يأخذوه ويعاقبوه ، وهم كانوا مهرة في تتبع المعارضين و إخراجهم من ديارهم و ارسالهم الى معاوية أو الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^١ (أحد قادة جيش الشام) .

ويعضّي طه حسين بعيداً في تفكيك الرواية " السيفية " ليتوقف عند نقطة مهمة ايضاً ، تتعارض و المنطق التاريخي ، وهي الخاصة بالعلاقة بين عبد الله بن سبأ و أبي ذرّ الغفاري و التي تجعل الأخير من أتباع الأول و من السائرين على هديه ، فيقول : " ومن أغرب ما يُرى أمر عبد الله بن سبأ ، أنه هو الذي لقّن ابا ذرّ نقد معاوية فيما كان يقول من أن المال هو مال الله ، وعلمّه أن الصواب أن يقولن أن المال هو مال المسلمين^٢ .

^١ الفتنة الكبرى ص ١٣٢

^٢ أنظر الرواية في الطبري ج ٤ ص ٢٨٣

ومن هذا التلقين إلى أن يقال إنه هو الذي لقن أبا ذرّ مذهبه كله في نقد الأمراء و الأغنياء و تبشير الكانزين للذهب و الفضة بمكاي من النار تكوي جباههم و ظهورهم وما أعرف إسرافاً يشبه هذا الاسراف ، فما كان ابو ذرّ في حاجة الى طارئ مُحدث في الاسلام ليعلمه أن للفقراء على الاغنياء حقوقاً ، وان الله يشرّ الذين يكتزون الذهب و الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب اليم ، وأن المال الذي يكسبه المسلمون حين يظهرون على العدو ، أو الذي يؤديه المسلمون الى بيت المال زكاةً أو خراجاً ، هو مال المسلمين يجب أن يضاف اليهم في القول وأن يرد عليهم بالفعل" ^١ .

ويتابع لافتاً الى ريادة ابي ذرّ في الاسلام ، ومعايشته القريه للرسول،
 أخذاً التفاصيل عن دعوته وعن تجربته في الحكم :

"لم يكن أبو ذرّ بحاجة الى هذا الطارئ ليعلمه الحقائق الأولية من حقائق الاسلام . وابو ذرّ سبق الأنصار جميعاً وسبق كثيراً جداً من المهاجرين الى الاسلام ، وهو قد صحب النبي فأطال صحبته ، وحفظ القرآن فأحسن حفظه ، ، وروى السنّة فأتقن روايتها" ^٢ .

^١ الفتنة الكبرى ص ١٣٣

^٢ المكان نفسه

ولا يكتفي الكاتب بالتصدي النظري لهذه المسألة ، حين يتوجه بالنقد إلى مروّجي هذه المعلومة قائلاً : " فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد أتصل بأبي ذرّ فالتقى اليه بعض مقاله ، يظلمون انفسهم و يظلمون ابا ذرّ و يرقون بأبن السوداء الى مكانة ما كان يطمح ان يرقى اليها " ^١ ، ولكنه يخوض فيها معتمداً على القرائن ، مستحضراً ردّ الغفاري على كعب الأحبار و وثوبه عليه ، بعدما سمح الأخير لنفسه بالتدخل " مجتهداً " بينه وبين الخليفة عثمان بشأن فريضة الزكاة ^٢ . و ينتهي الكاتب الى تحليل منطقي للعلاقة بين الاثنين قائلاً :

" فأبو ذرّ ينكر على كعب الأحبار أن يعلمه دينه ، بل أن يدخل في أمور المسلمين حتى يبإءاء الرأي ، مع أن كعب الاحبار ... ابعد عهداً بالاسلام من ابن سبأ وكان مجاوراً في المدينه يصبح و يمسي بين اصحاب النبي ، وكان معاشرأ لعمر و عثمان ، ثم الا يتحرج (أبو ذرّ) من أن

^١ المكان نفسه

^٢ يروي الطبري عن سيف أن أبا ذرّ دخل على عثمان و عنده كعب الأحبار فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يذلوا المعروف وقد ينبغي للمودى الزكاة الآ يقتصر عليها - حتى يُحسن الى الجيران و الاخوان و يصل القرابات . فقال كعب : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه . فرفع ابو ذرّ محمته فضربه فشحه و قال له يا ابن اليهوديه ما أنت وما ها هنا . الطبري ج ٤ ص ٢٨٤ . أنظر طه حسين ، الفتنة الكبرى ص ١٣٣

يتلقى من عبد الله بن سبأ اصلاً من اصول الاسلام و حكماً من احكام القرآن ...^١

إن طه حسين في بحثه لموضوعه ابن سبأ ، كان قارئاً جيداً للتاريخ ، وممسكاً بكافة الخيوط فيه الرواية، دون أن يدع طرفاً منها يشذ عن الآخر، فجاء هذا البحث متماسكاً في وحدته وبنائه ، و ذلك في ظل رؤية تحليلية ونقدية ثاقبة ، حصنته من الوقوع فيما وقعت فيه جمهرة من المؤرخين الذين كانت قراءات معظمهم مسطحة وجامدة . لقد كانت الثورة على عثمان - برأي الكاتب - محصلة لعدة اسباب ، قد لا يكون محورها السخط على سياسة الخليفة ، بقدر ما هي خاضعة في الأساس للتحويلات التي مرت بها دولة الاسلام في أعقاب حركة الفتوح الأولى ، تلك التي فشل عثمان في استيعابها على نحو ما فعله الخليفة السابق، باعتماده معادلة توازنه شموليه ، أدت الى انحسار كثير من التناقضات في عهده . على أن عثماناً بنزعتة الفتوية أطاح تلك المعادلة التي أحدث انهيارها شرخاً كبيراً أخذ يتوسع حتى انتهى الى ما عُرف بالفتنة . فهل كان ذلك كله من انجاز عبد الله بن سبأ الذي لا ينفك طه حسين يدعوه بـ " الطارئ " على هذه الموجة إن صح وجوده بالفعل ،

^١ الفتنة الكبرى ص ١٣٣

واصفاً ما قيل حوله في هذا الصدد بأنها "أمور لا تستقيم للعقل و لا تثبت للنقد و لا ينبغي أن تقام عليها امور التاريخ" ^١ .

و هذا التشكيك بشخصية ابن سبأ أو بدوره ، انما هو نابع من الحقائق و ليس من الاجتهاد فقط ، دون أن يهمل الكاتب مسألة حيوية ، تمس الجانب السلبى في حركة التدوين التاريخى الاسلامى وما تسرب اليها من روايات لا تتمتع كلها بالثقة ، فيصل بناء على ذلك إلى استنتاج واقعى بصدد هذه الشخصيه السبئية قائلاً :

" أكبر الظن ان عبد الله بن سبأ هذا - إن كان ما يُروى عنه صحيحاً - إنما قال ما قال و دعا الى ما دعا اليه بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف ، فهو فقط استغل الفتنة و لم يثرها . و أكبر الظن كذلك ان خصوم الشيعة أيام الأمويين و العباسيين قد بالغوا في امر عبد الله بن سبأ هذا ، ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث الى عثمان و دلالاته من ناحية ، وليشنعوا على علي و شيعته من ناحية اخرى ، فيردوا بعض امور الشيعة الى يهودي اسلم كيداً للمسلمين . و ما اكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة ، و ما اكثر ما شنع الشيعة على خصومهم في امر عثمان ، وفي غير امر عثمان " ^٢ .

^١ المرجع نفسه ص ١٣٤

^٢ المكان نفسه

ب- محمد عمارة : الخلافة و نشأة الأحزاب الاسلامية .

لم ينل عبد الله بن سبأ سوى القليل جداً من اهتمام هذا الكاتب الغزير الانتاج ، منطلقاً ، شأن طه حسين ، من الشك بوجود هذا الرجل، وذلك في سياق بحثه لموضوعة " الشيعة و الإمامة " ^١ . فهذا البحث يناقش اساساً التشيع كعقيدة دينية تبلورت مع هشام بن الحكم ^٢ ، نافياً أن تكون ثمة علاقة بين الأخير وعبد الله بن سبأ الذي اسس - بناء على رواية سيف - لمبدأ " الوصية " جوهر هذه العقيدة ^٣ . و يعتقد عمارة أن التشيع كان ما يزال حتى ايام هشام ، تياراً سياسياً يمثل الحزب المؤيد لحق علي في الخلافة ، ولم يأخذ وجهته " العقيدية " الا مع جعفر (الصادق) و أبيه (الباقر) و حفيده (الرضا) ، إذ هؤلاء " تُنسب اليهم اغلب الروايات التي رواها الشيعة في صورة أحاديث عن النص و الوصيه " حسب قوله ^٤ .

^١ الخلافة و نشأة الأحزاب الاسلامية ص ١٥١ وما بعدها

^٢ فقيه من أصل فارسي عاصر الامام جعفر الصادق

^٣ عمارة ، المرجع السابق ص ١٥٣

^٤ المرجع نفسه ص ١٥٣

وفي ضوء هذا التوجّه ، يعارض عمارة المقولة التي تربط ظهور التشيع بحركة عبد الله بن سبأ في اواخر خلافة عثمان . وهذا الموقف لم ينطلق من قراءته لتفاصيل رواية سيف في الطبري الذي غاب نهائياً عن هوامش هذا البحث ، ولكنه عاد الى ما اقتبسه المقرئ من هذه الرواية^١ . ولسنا هنا في مجال التعرّض لمنهج عمارة الذي يجتهد أحياناً بمنأى عن النصوص التاريخية ، مما يؤدي الى اختصار الفكرة او مراودتها عن بعد . ولكن الرجوع الى النص الأصلي، عدا أنه من اساسيات المؤرخ أو الكاتب في التاريخ ، فإنه يفتح آفاقاً لا تتيحها المصادر المتأخرة أو المراجع الحديثة.

ولقد انعكس ذلك على منهج عمارة فيما تطرق له من اشارات الى ابن سبأ ، دون أن يكون خارج اللبس ما صرّح به عن الاصول التاريخية التي عاد اليها قائلاً : " وتنسب اغلب مصادر التاريخ والفكر الاسلامي الى ابن السوداء هذا نشاطاً عظيماً و جهداً خرافياً"^٢ . فهو لم يعرف أولاً عن هذه المصادر ، وثانياً إن موضوع ابن سبأ لم يرد إلا في رواية واحد شكّلت المصدر الوحيد له ، و ثالثاً إن المادة التي اقتبسها ليست مطابقة تماماً لما جاء في الرواية الاساسية . فقد نسبت هذه " المصادر " لابن سبأ دوراً خرافياً بالفعل ، ومن خلالها جاءت ترجمته لدى عمارة كما يلي:

^١ المرجع نفسه ص ١٥٤

^٢ المكان نفسه

"تقول (المصادر) أنه أتى الحجاز و تقشف وقام بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر طلباً للرئاسة . ثم لعب دوراً كبيراً في ايقاع الفتنة بين الصحابة و أكابرهم ، ثم حَرَضَ على قتل عثمان و حركَ الناس في هذا السبيل . و في خلافة علي أفسد المحاولات التي كادت تنجح للصلح في البصرة بين علي و طلحة و الزبير . ثم جاء دوره في ظهور التشيع عندما جاء الى الكوفة يُظهر تعظيم علي مما لا يرضاه علي و يستغوي بذلك من ليست له صحبة و لافقه في الدين ، كالبوادي و أهل السواد و يتحدث بينهم ، وربما استقصر عندهم فعل أبي بكر و عمر و عثمان ، ويقدم امير المؤمنين (علي بن ابي طالب) عليهم في الفضل . وكان يدعي ان علياً يستخصه و يخرج اليه بأسرار لا يخرج بها الى غيره ، وعلي لا يعلم ذلك."^١

ان هذا التوصيف لدور ابن سبأ والذي اقتبس الكاتب معظمه عن "تثبيت دلائل النبوة" للقاضي عبد الجبار ، لا يجنح فقط الى المبالغة ولكنه يتجاوز ما جاء في رواية سيف من تفاصيل . غير أن الكاتب وقد اورد ذلك ، لا يبدو مقتنعاً بهذا الدور الذي سرعان ما يصطدم عنده بالشك، متعاملاً بحذر مع " داعية " اختلف بشأنه المؤرخون ، إذ قاد البحث عنه فريقاً الى انكار شخصيته كلياً ، و رأى " أن مؤرخي السنة

^١ المرجع السابق ص ١٥٤

قد اخترعوها كي يعلقوا في عنقها الأحداث و الصراعات و الدماء التي سببها الصراع على السلطة ، حتى تظل لصحابة رسول الله قدسيته و صورتهم المثلى في النفوس . كما قاد هذا البحث البعض الآخر الى التسليم بوجود هذه الشخصية ، و لكن مع رفض المبالغة في الدور الذي لعبه في تلك الاحداث^١.

و إذا كان هذا التصنيف الذي أورده عمارة يتفق و المبدأ العام لدى الفريقين في النظرة الى شخصية ابن سبأ ، فإنه ليس خاضعاً بالمطلق لهذه الرؤية المجردة . ولعله يغفل من هذا المنظور حقيقة هامة ، وهي أن رائد الشك بهذه الشخصية كان طه حسين ، مقدماً قرائن علمية بارزة في هذا السبيل ، دون أن يرد كتابه (الفتنة الكبرى) بين مصادر ومراجع الكاتب. كذلك فإن مورخاً غير شيعي نظر الى ابن سبأ بما يتعدى الشك الى الرفض ، وهو هشام جعيط في كتابه القيم عن "الفتنة"^٢ . على أن عمارة وإن كان مطلوباً منه التعمق أكثر في دراسته لشخصية السبئي ، فإنه في وعيه اقرب الى اسقاطها من الهاله التي احيطت بها ، ذاهباً الى رفض العلاقة اساساً بينها و بين حركة التشيع .

^١ المرجع نفسه ص ١٥٤ - ١٥٥

^٢ الفتنة ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر ص ٧٥

وقد خلص في تقويمه لشخصية ابن سبأ وارتباطها - بما يُزعم -
بحركة التشيع الى القول : " أما فيما يختص بموضوعنا ، موضوع التاريخ
لنشأة التشيع ، فان وجود ابن سبأ - على فرض التسليم بوجوده - ...
لا يصلح دليلاً على ان التشيع ظهر في ذلك التاريخ ... وحتى الشيعة لا
يروون عنه شيئاً من ذلك .. و من هنا فإن عصره لا يصح أن يُتخذ بدءاً
لتاريخ الشيعة و التشيع بالمعنى الفني المعروف " ^١ .

ولكن عبد الله بن سبأ - كصاحب دور يتعدى هذه المسألة - لم
ينل حظاً من الدراسة المعمقة لدى عمارة ، مما كان سبباً في الارتباك
الذي ساد احياناً البحث ، وكان ناتجاً في الاساس عن ابتعاد الكاتب عن
الرواية الأصلية التي ذكرت أخبار هذا "الداعية" . ولو عاد اليها ، ربما

تفادى الوقوع في اخطاء ثلاثة ليس على المؤرخ الوقوع فيها وهي :

١ - قوله أن المصادر المعتمدة لم تنتسب الى ابن سبأ القول بالنص
والوصية (بل نسبت اليه فقط القول بتفضيل علي على الصحابة) ^٢ . و هذا
مخالف لما جاء في الرواية من قول ابن سبأ في هذا المجال : " لكل نبي

^١ عمارة ، المرجع السابق ص ١٥٥

^٢ انظر الكتاب ص ١٥٥

وصي و كان علي وصي محمد...محمد خاتم الأنبياء و علي خاتم
الأوصياء"^١

٢- لم يرد في الرواية مايتعدى تحريض ابن سبأ على الخليفة عثمان ، دونما
اشارة الى التعريض بأبي بكرأو عمر، خلافاً لما ورد عند عمارة في هذا
السييل .

٣- ما جاء من تناقض الكاتب مع نفسه ، حين رأى أن الشيعة لم يرووا
شيأ من قول ابن سبأ في الوصية الوصية والنص ، في الوقت الذي وصف
الشيعة من قبل ، بأنهم يرفضون بالمطلق وجود هذا الرجل.

^١ الطبري ج ٤ ص ٣٤٠

الرافضون

أ- محمد عبد الحى شعبان^١ وهشام جعيط^٢ .

إنها مسألة منهج يمكن على أساسها تقويم شخصية ابن سبأ ، إذا كانت حقيقة أو أسطورة ، أو بين الأثنين كحدث عابر في مسار تلك المرحلة . ومن هذا المنطلق ربما نفسر تجاهل المؤرخ المعاصر محمد عبد الحى شعبان لهذه المسألة ، على الرغم من خوضه على نطاق واسع في اشكالية الفتنه و الصراعات التي واكبتها . فقد اسقط تماماً الموضوعه السبئية من كتابه، على الرغم من عودته في هذا السياق الى الطبري و الى رواية سيف بالذات ، دون أن يعني ذلك سوى أنها لم تتلاءم مع المنهج العلمي ، ربما المتشدد ، الذي اختاره لدراسته ، بحيث يصبح التجاهل هنا بمثابة الرفض .

وفي ضوء هذا المنهج ، تجنّب مؤرخ معاصر آخر (هشام جعيط) -
ينحو الاتجاه نفسه في التاريخ مع رؤية أكثر شمولىه وواقعية - التوقف

^١ صدر الاسلام والدولة الاموية

^٢ الفتنه ، جدلية الدين والسياسة في الاسلام المبكر . ترجمة خليل احمد خليل

عند هذه الحادثة على الرغم من اتخاذ "الفتنة" التي برز في ظلها ابن سبأ محوراً لكتابه . ولم تكن وقفته السريعة عندها ، سوى التأكيد على رفضها وعدم الاقتناع بوقوعها . وقد جاء ما ينم هذا الموقف في تعقيب المؤرخ جعيط على خطاب أبي ذر الغفاري في الشام ، المندد بـ "اكتناز" الأغنياء للمال و النزوع الى الترف حيث يقول : " هذه الرواية التي تضع عبد الله بن سبأ على المسرح لا يمكن قبولها" ، وينتهي الى اعتبارها رواية " ملفقة " ^١ في الأساس .

ب - أحمد لؤسانى : نظرات في تاريخ الادب .

هذا الكاتب يتعرض لقضية ابن سبأ على أنها حركة مدسوسة على الاسلام ، ابطالها اليهود الذين تظاهروا بهذا الدين و ما انفكوا يتآمرون عليه حسب رأيه . و يصل به الأمر ليس الى الشك بالرواية ، ولكن بصاحبها نفسه (سيف بن عمر) متسائلاً بشأنه فيقول " إذا لم يكن هذا يهودياً اظهر الاسلام كما فعل الكثيرون غيره من أجل افتعال الاحاديث و خلق الفتنة - و احاديثه و أخباره تؤيد هذا الظن - فهو على الأقل يفهم نفسية اليهود و يدرك اساليبهم " ^٢ . و لعل مثل هذا

^١ المرجع السابق ص ٧٥ هامش <١>

^٢ نظرات في تاريخ الأدب ٣١٨

الحكم على إخباري هو أحد ثلاثة أو أربعة^١ ، اعتمد المؤرخون أساساً على رواياتهم فيما دونوه من أحداث القرن الاول و معظم القرن الثاني الهجريين ، قد لا يكون مقبولاً و بهذه السرعة ، لدى المؤرخ الذي ربما طعن برواية أو أكثر لأحد هؤلاء الاخباريين ، ولكن اسقاط ذلك كلياً عليه سيجنح بنا الى المبالغة ، وبالتالي سيقودنا إلى الطعن بكل الروايات التاريخية ، سواء المنسوبة لسيف أو لغيره من اهل الاخبار . وليس على المؤرخ الواقعي هنا ، أن يقلل من أهمية ما أورده احسان عباس في رده على مرتضى العسكري بشأن سيف و طعنه بكل رواياته إذ يقول عباس:

" هل تكفي ادانة اهل الحديث لسيف بأنه ضعيف متروك ، لتحملنا على رفض رواياته التاريخية ؟ لقد كان لأهل الحديث مقاييسهم الخاصة في التعديل و التوثيق " . ثم يضيف : " هل من الممكن أن يكون سيف قد اختلق كل هذا ، أي كتب تاريخاً من خياله ؟ " . وينتهي الى القول عن سيف بأنه " كان يحاول كتابة موسوعة تفصيلية للأحداث و لا يقتصر

^١ ابو مخنف ، عوانة بن الحكم ، سيف بن عمر ، الواقدي

على ملخص عام ... ماذا تقول (مخاطباً العسكري) في سيف حين تتفق روايته مع روايات أخرى لرواة آخرين ؟^١ .

لقد ذهب اللواساني في الاتجاه الذي سار فيه العسكري ، فلم يقم بدراسة الرواية ، مفككاً عناصرها و مختزلاً نقاط الضعف فيها ، وإنما رفضها بالمطلق و عن سابق تصميم ، وهذا ما يعبر عن قوله : "في الكذبة الكبرى التي اختلقها سيف بن عمر ، حين خلق شخصية اسمها عبد الله ابن سبأ و أتباعاً له دعوا "السبعين" ، نجد حالة تصوّر لنا العقليه التي يمكن ان تخطط لمثل هذا التدبير و تتوصل الى مثل هذه النتائج "^٢ . ويتخذ مثلاً على ذلك ، ما رواه هذا الإخباري (سيف) عن دور ابن سبأ في معركة الجمل ، مما لا ينسجم " مع الواقع التاريخي " أو ينطبق " مع أي من المصادر الاسلامية " حسب قوله^٣ .

و الكاتب لا يؤرخ لهذه الحادثة ، بل هو معنى في الصميم بالدور اليهودي المشبوه الذي حاول اختراق الاسلام من خلال شخصيات توزعت المهام في هذا السبيل ، و كان من يمثلها برأيه : عبد الله بن سلام

^١ انظر رسالة إحسان عباس الى مرتضى العسكري معلقاً على كتاب الأخير : عبد الله بن سبأ

وأساطير أخرى ص ٢٤٧ - ٢٤٩

^٢ نظرات في تاريخ الأدب ص ٣١٦ - ٣١٧

^٣ المرجع نفسه ص ٣١٧

" الذي تجمع حول اسمه كثير من الاحاديث و الاخبار المشكوك بأنها مدسوسة على الاسلام " ^١ ، و كعب بن مافع المعروف بكعب الأخبار الذي تنبأ لعمر بن الخطاب بمقتله ، " وكان أبرز المتهمين بتسرب أخبار وتأويلات يهودية الى الاسلام على يده " ^٢ ، و وهب بن منبه " الذي يأتي في أوائل الذين ألفوا كتباً من تلك التي أدخلت في الاسلام أخباراً كثيرة " ^٣ ، بالاضافة طبعاً الى عبد الله بن سبأ . وقد اكتفى الكاتب بما أشير الى دوره في حرب الجمل ، دون أن يتطرق الى "دعوته" في المدينة و الامصار مخرضاً عى عثمان و مروجاً لعللي " وصي النبي " . وبناء على هذا المفهوم - وعلى غرار السيد العسكري- يكون سيف بن عمر ، القضية التي استأثرت باهتمام الكاتب ، وذلك على حساب السبئي الذي أصبح بداهة غير موجود ، استناداً الى " اختلاق " الرواية له في الاساس ، " وافتعال " صاحبها أخباراً لا تمت برأيه الى الحقيقة بصلة .

^١ المرجع نفسه ص ٣٢٠

^٢ المرجع نفسه ص ٣٢١

^٣ المكان نفسه

ج - مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى .

عود على بدء ، كما يقال ، فالسيد العسكري ، وإن لم يكن رائد إثارة الاشكالية السبئية ، فهو على الاقل مثيرها على نطاق واسع من خلال كتابه السالف ، الذي ربما كان الوحيد الذي طرق مباشرة هذا الموضوع . و هذا ما دفعه - استناداً الى خلفية ظاهرة - الى النقد من منظور سلمي لكافة " أحاديث سيف " ، حيث كان " منشأ الاسطورة السبئية " ^١ على حد قوله . و إذا كانت قيمة هذا الكتاب تنحصر في هذه المسألة ، أي في الجهد الذي سخره في تقصّي الروايات " السيفية " ، وامتدادها في عدد من المصادر و المراجع ، بما انطوت عليه من مفارقات و مقارنات في آن ، فإنه لم يشكّل بحثاً وافياً و مقنعاً عن عبد الله بن سبأ، عنوان الكتاب .

وكما أشرنا في القسم الاول من دراستنا ، فإن العسكري تناول شخصية رافضاً لوجودها منذ البداية ، دون أن يأخذ بالنقد الرواية أو ينتهي الى استنتاج بشأنها . فقد استهل كتابه بما يشبه التمهيد له ، بعنوان " الاسطورة السبئية " ، طارحاً أربعة اسئلة وهي :

^١ عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى ص ٣٥

من هو ابن سبأ، من هم السبئيون، وما هي دعاواه ، وما هي أهم أعماله؟
هذه الاسئلة الكبيرة لم تأخذ من الكتاب سوى ست صفحات، ولانبالغ
اذا قلنا أنها لم تجب على أي منها . فقد لخص بكثير من السرعة أخبار
السبئي كما جاءت في الرواية " المزعومة " لسيف الذي يصفه الكاتب بـ
" القاص " ^١ ، و الذي ينسج - برأيه - خيالاً و لا يروي حقائق تاريخية .
ثم يعرض بعد ذلك لكبار السبيين استناداً الى الأسطورة " وهم أبو ذرّ
الغفاري ، وعمار بن ياسر ، ومحمد بن ابي حذيفة و عبد الرحمن بن
عديس ، ومحمد بن ابي بكر وصعصعة بن صوحان و مالك الأشتر .
والطريف أن ما ذكره عن هؤلاء لم يأت في سياق علاقتهم بالسبئية أو "
انظوائها " تحت رايتها، وإنما اقتصر ذلك على ترجمة لكل منهم ، جاءت
خارج الموضوع ، قبل ان ينتهي الى تعقيب لا يعبر عن الافكار الواردة
فيها ، اذ يقول :

هذه هي اسطورة ابن سبأ بإيجاز ، وهؤلاء هم السبيون الى مئات من
أبرار المسلمين من صحابة وتابعين و نظرائهم " ^٢ .

ولا يقصد هنا بالطبع سوى ما " زُعم " عن هذا " الحزب السبئي "
ورجالاته ، إلا أن ترجمة هؤلاء ليست بصدد السبئية على الإطلاق .

^١ المرجع نفسه ص ٣١

^٢ المرجع نفسه ص ٣٤

فكيف انخرطوا في هذا " الحزب " ، وما كان دورهم فيه ، وما كانت وجوه نشاطهم، الى اخر هذه الأسئلة ؟ ذلك ما لم تحب عليه " الترجمات " التي يمكن اتخاذ نموذج منها للدلالة على انفصالها التام عن محور الموضوع.

يقول العسكري عن الأشر : " هو مالك بن الحارث بن بغوث بن سلمة بن جذيمة بن مالك النخعي . أدرك رسول الله (ص) وهو من ثقافة التابعين و كان رئيس قومه . شهد اليرموك فشترت عينه ولقب بالاشتر . صحب علياً (ع) في الجمل وصفين و له مواقف شهيرة فيهما . ولّاه على مصر سنة (٣٨ هـ) ، فلما وصل الى القلزم دس اليه معاوية السم بالعسل و توفي متأثراً بالسم " ^١ .

وما ذكره العسكري عن الاشتر، لا يختلف عن بقية " كبار السبئيين " السبعة الذين تحدّث عنهم بمعزل عن الصفة المنسوبة لهم .

بعد ذلك يورد لائحة بأسماء المروّجين للسبئية ، دون الالتزام بالتسلسل الزمني ، مبتدئاً بالشيخ محمد رشيد رضا و منتهياً بالذهبي ، مروراً بعدد كبير من المؤرخين القدامى و المحدثين مثل : الطبري و أبي الفداء و ابن الاثير و أحمد امين و حسن ابراهيم حسن و فلهوزن وفان فلوطن الخ ^٢ . . . على ان هذه اللائحة من المروّجين ، ملخّصة " في الجدول

^١ المكان نفسه

^٢ المرجع نفسه ص ٣٧ - ٥٦

الذي ختم به هذا الفصل ، لاتبدو مهمة بالنسبة للمؤرخ الذي تعنيه جذور الرواية و ليس امتدادها في المراجع ، الا اذا كانت الغاية من ذلك مناقشة الأفكار الواردة فيها ، وهو أمر لم أجد العسكري خائضاً فيه أو مقارباً له بصورة جديده.

وإذا كان توسيع دائرة البحث ليشمل دراسة " مقارنة " لأحاديث سيف ، قد قصد الكاتب من ورائه تجريد هذا الإخباري من الثقة برواياته، بما يسقط بداهةً على رواية ابن سبأ " الاسطورة " ، فإن هذا الموضوع لم ينل ما يستحقه على مستوى العمق و الشمولية . ولكن ما حققه العسكري من رصد لهذه الروايات (الاحاديث) و توثيق لها و مقارنة مع الروايات الاخرى ، يعتبر عملاً جليلاً بحد ذاته . وقد شكل ذلك مدخلاً الى محاولة قراءة جديدة لشخصية ابن سبأ ، بصرف النظر عما انطوت عليه من افكار مسبقة ، سرعان ما تجلّت في السطور الأولى من الكتاب . ومن هذا المنظور فإن الكاتب على الرغم من أنه لم يكن البادئ في اثاره الاشكالية السبئية ، فإنه من دون شك كان اول الطارحين لها على هذا المستوى الجدالي الحاد ، مما لم يعد باستطاعة احد من المؤرخين تجاهل ذلك اللبس الذي احاط بشخصية ابن سبأ ، او الخروج من دائرة الشك،على الأقل بدوره " الطارئ " في مواجهة أحداث الفتنة .

د- ابراهيم محمود : أئمة وسحرة ، البحث عن مسيلمة الكذاب وعبد الله بن سبأ

ونحن نكاد ننهي دراستنا عن عبد الله بن سبأ ، وصلنا هذا الكتاب الصادر حديثاً (مطلع ١٩٩٦) ، وقد رأينا لمزيد من الفائدة ادراجه بين مجموعته الدراسات التي تعرضنا لها في هذا السياق . على أن الكتاب ، وصياغة عنوانه لا يحتاج أمامها القارئ الى التوقف ، ليدرك أنه ليس بحثاً في التاريخ ، بقدر ما يندرج في فلسفة التاريخ ، لم يضيف جديداً بارزاً الى الموضوعه السبئية ، بل أنه - أي الكتاب - ربما تركنا أكثر بلبلة بشأنها . وهذا ما يواجهنا بالفعل منذ الصفحات الاولى من البحث و الاعلان عن موقف صاحبه من التاريخ ، باعتباره " مجالاً مفتوحاً للنظر فيه .. يتحرك فينا الاسئلة الكبرى و المتعلقة بما يتضمنه من علاقات وما يثيره من افكار و ما يقوم عليه من حجب الافكار و ثغرات تتخلل بناءه الفكري ، وتداخلات تستدعي المجادلة ^١ .

وفي ضوء هذا الموقف . فهو يلج موضوعه بحذر شديد و ميل الى "المساءلة " و محاولة " الاستنطاق " ، وهما عبارتان غالباً ما استخدمهما

^١ أنظر الكتاب ص ١٤

في التعاطي مع النص التاريخي. محمله ، و الذي يبقى عنده موضع ارتياب و لذلك يرى أن شخصية ابن سبأ " بولغ في أهميتها و خطورتها " ^١ ، كمحرك رئيس للفتنة التي " شكّلت المنبع لظهور المناوئين للدولة الاسلامية في طابعها السني " حسب تعبيره ^٢ . هل يرى الكاتب هنا أن عبد الله بن سبأ شخصية مختلقة في التاريخ ؟ قد لا يبدو ذلك واضحاً ، على الأقل في مقارنته مع شخصية واقعيه من رموز الردّة ، اعني بها مسيلمة الكذاب ، خصوصاً المقارنة بين ما يعتبره الكاتب " منافسة " من الاخير للنبي ، و " طعن السبئي " في شخصية عثمان ، بل السابقين عليه ، بدعوى أن علياً وصي النبي محمد ^٣

والكاتب هنا يعود الى رواية سيف في حيثياتها المعروفة ^٤ ، أي أنه ينطلق من اعتراف بشخصية ابن سبأ ، إلا أنها " تقارب الاسطورة بالنسبة للتاريخ " حسب تعبيره ^٥ . ويورد دلالات كثيرة في هذا المجال تقلل من اهمية الدور المنسوب اليه ، ومن ذلك استغرابه من انخراط شخصية صحابية كبيرة " ومن الموعودين بالجنه " مثل عمّار ابن ياسر في هذه

^١ المرجع نفسه ص ١٧

^٢ المكان نفسه

^٣ المرجع نفسه ص ١٦٧

^٤ المرجع نفسه ص ١٦٩

^٥ المرجع نفسه ص ١٦٧

"الشبكة السبئية"^١ . غير أن الكاتب يعود مرة أخرى الى بحث هذا الموضوع على مستوى التاريخ و علاقتها بـ (اليهودية الوسطية) ، أو ما عُرف في الأدبيات الاسلامية بالأسرائيليات، متعمداً الدخول من هذا الباب الى عالم عبد الله بن سبأ ، باحثاً عنه و ملامساً حقيقة دوره الغامض .

يقول محمود : " ان ابن سبأ أو ابن اليهودية أو ابن السوداء للذم والتحقير ، شكل شخصية اكتسبت كل الأبعاد التي تجعلها ، وجعلتها ، اسطورية من جهة ، وتقدمها وقدمتها الدراسات التي تناولتها داهية في التاريخ العربي الاسلامي في فترة من أكثر فتراته حساسية ودراماتيكية (في القرن الأول منه) من جهة ثانية ، و تسند و اسندت اليها دوراً تأمرياً في تلغيم و توتير هذا التاريخ ، ومن خلال أكثر الرموز الدينية حضوراً (أو من أكثرها على الاقل) في هذا التاريخ ، و زحزحة جانبيه و تشطياتية له من جهة ثالثة . تلكم هي الشخصية الرمز المسماة ... عبد الله بن سبأ "^٢ . وفي ضوء ما تقدم ، ينزع الكاتب الى اعتبار هذه الشخصية ، شخصية اسطورية، الا ان ذلك غير مطابق لوجهة العسكري الذي ينفي وجودها منذ أول كلمة في كتابه ، إذ تبقى نظرتة (محمود)

^١ المرجع نفسه ص ١٧٥

^٢ المرجع نفسه ص ١٩٢

محكومة بهذا المنحى الجدلي : " ليس الموضوع الذي هو في متناولنا ، يقتصر على حقيقة هذه الشخصية ... إنما هو ما يُحرك هذه الشخصية تاريخياً إذ البحث في موضوع عبد الله بن سبأ وما إذا كان فعلاً شخصية حقيقية أم لا ، لا يفيدنا ، لأن ذلك لن يزحزح هذه الشخصية ، بالعلاقات التي عُرفت بها و الدلالات الخافة بها ، و لن يغير ذلك فيها موقِعاً و دلالة تاريخيين شيئاً وبسهولة " ^١ .

ولا اشك ان الكاتب يملك حساً مرهفاً ، مكنّه من الخوض على هذه المساحة " الملتغمة " برباطة جأش ، دون الانصياع للمسلمات التي بدت شبه قائمة في الدراسات التاريخية بصدد هذه المسألة . بيد أنه يخوض فيها على مستوى فكري ، مستنطقاً النص في هذا الصخب الجدالي الذي يصبح غاية في معظم الأحيان لديه ، بخلاف طريقة المؤرخ و منهاجه الذي يتوسل اثاره الجدل طريقاً الى مقارنة الحقيقية التاريخية . و لذلك فهو يمعن في طرح الأسئلة ، او المساءلة - كما يؤثرها - من غير أن توفر له إجابات هادئة ، تسهم في اضاءة المدى الواسع الذي يسبح فيه . و لعله يبدو اكثر اقتراباً من موقع المؤرخ ، في الصفحات التي يناقش فيها

^١ المرجع نفسه ص ١٩٣

الموضوعه السبئية من خلال النظرة في المصادر اليها ، متوقفاً عند ستة من المؤرخين و الفقهاء ممن تناولوها في عهود متفاوتة :

١- الطبري : يلاحظ الكاتب - متأثراً بنظرة طه حسين - برغم تقديره للمكانه التي يحتلها " هذا المؤرخ الاسلامي الكبير " ، أن ركام الروايات التي أوردها لم ينقذه من الوقوع في "التناقض" ، إذ "كيف يمكن - والكلام للكاتب - الجمع بين يهودي ، يُعرف بمثل هذا الخبث والدس والنفاق و الكذب ، و صحابي جليل ورع كان جريئاً في مواجهته للآخرين (أبو ذرّ الغفاري) ... فهل كان بحاجة الى ابن سبأ وهو نقيضة في نواياه ، ليأخذ منه درساً في الثورية العقائدية ، وفي وضع حد لظلم المسلم في المسلم و إحقاق الحق " ^١ ويمضي في هذه المجابهة مع المؤرخ الكبير ، متسائلاً مرة اخرى " كيف يمكن الجمع بين جهاز الشرطة الذي أسسه عثمان ، و النشاط المكثف الذي كان يقوم به اليهودي ابن سبأ " ^٢ ، و بالتالي كيف يُستدعى الغفاري للتحقيق معه أكثر من مرة في الشام و لا ينطبق ذلك على ابن سبأ الذي اكتفى معاوية بطرده ، من "دون تعريضه لعملية تأديب معينة" ^٣. و يخلص الى التشكيك في الرواية التي

^١ المرجع نفسه ص ١٩٤ - ١٩٥

^٢ المرجع نفسه ص ١٩٦

^٣ المكان نفسه

اوردها الطبري من غير تمنع أو تمحيص ، بل أن الشك يذهب الى المؤرخ نفسه (الطبري) الذي لم ينف عنه الكاتب محمود التأثير بخلفيته "المعتقدية في تحليلها المذهبي الرسمي تماماً" ^١ حسب تعبيره .

٢- المسعودي : لا يرى الكاتب عند هذا المؤرخ ، علاقة واضحة بين أطراف الأزمة - الفتنه (عثمان ، ابو ذر ، ابن سبأ) ، إذ يكتفي المسعودي من ذلك بمواجهة بين الأولين و كعب الأحبار ، من خلال مروية مقتبسة على ما يبدو عن الطبري . ويعتقد محمود أن النزعة " الشيعية " ^٢ عند المسعودي كانت وراء إهماله لأخبار ابن سبأ .

٣ - الشهرستاني : يقتصر ما رواه عن هذا الفقيه ، على اشارة عن ابن سبأ متزامناً مع خلافة علي ، بوصفه أحد الغلاة الذين ظهرو في عهده ، " و كأنه - والكلام للكاتب - يلجأ الى الغمز ... باشارته هذه في ربطه ربطاً خفياً ، ومن ثم وظيفياً (بنيوياً) بين نشاطات علي ، والنزوع المذهبي " الايديولوجي " الشيعي باسمه ... أي أنه يؤرخ لوعي انقسامي في حياة الامة (الاسلامية) و طوائفي و مللي ، حيث تجلّت الصراعات الدموية واضحة " ^٣ .

^١ المرجع نفسه ص ١٩٨

^٢ المرجع نفسه ص ١٩٩

^٣ المرجع نفسه ص ٢٠١

٤ - أبو الحسن الأشعري : وقد اشار الى الغلاة و منهم السبئية الذين زعموا "أن علياً لم يمت ، وانه يرجع الى الدنيا قبل يوم القيامة ، فيملأ الارض عدلاً كما ملكت جوراً" ^١ . أي أن الأشعري يربط ، وإن بخلفية أقل بروزاً من الفقيه السابق ، بين " هولاء الغلاة ، وعلي نفسه ربطاً معتقدياً... فيجري التركيز على البعد الانقسامى في امة الاسلام من جهة وتنبية القارئ الى هذا المنبع اليهودي المؤثر و السلبي للتشيع من جهة ثانية" ^٢

٥ - ابن الاثير : يختصر ، برأى الكاتب ، حديثه في هذه المسألة ، على العلاقة بين الفتنة " والداعية " اليهودي ، محاولاً - كما الطبري الذي تأثر مباشرة به - إظهار الهدف التضليلي والإفسادي للحركة السبئية .

٦ - ابن خلدون: يتوسع الكاتب في شرح ملابسات الحركة السبئية عند هذا المؤرخ الذي " يبدو - برأيه - أكثر طواعية مع فكرة الخطر اليهودي المؤسّطر ... و أكثر صراحة و تشدداً حول هذا الموضوع ، عندما يعظم الدور اليهودي (ابن السوداء) و دفعه للناس في طريق

^١ المكان نفسه

^٢ المرجع نفسه ص ٢٠٢

الظلاله والفساد و الغوغائية و القتل " ^١ . و يروي عن ابن خلدون أن عبد الله بن سبأ " كان متشيعاً لأهل البيت و كان يجد باستمرار من ينخدع به ... و من بين هؤلاء الذين دخلوا دائرته السرية ، عمّار بن ياسر " ^٢ . أما رأي الكاتب محمود فيما أورده ابن خلدون بشأن هذه الموضوعه ، فإنه يردّ ذلك الى الخلفيه " السنيه " المتشده لهذا المؤرخ الذي كانت الخلافه هاجسه ، شأن معظم المؤرخين المتحركين في دائرتها ، باعتبارها رمز وحده الاسلام ، وكل مناوئ لها لا يتردد احد منهم في تصنيفه خارج الاسلام ، ومنهم بالطبع أو " على رأسهم " ^٣ ، عبد الله بن سبأ و لعل الكاتب محمود ، وهو لا يبدو معنياً كثيراً من وجهه نظر المؤرخ - كما سبقت الاشارة - بشخصية عبد الله بن سبأ ، بقدر ما تدرج عنده في العمليه النقديه للفكر التاريخي ، يراود في وعيه مسأله مهمه في هذا المجال ، تأخذ به الى اشكالية التاريخ برمته ، خصوصاً على مستوى العلاقه بين المؤرخ و الحدث التاريخي ، وما يعكسه الأخير من مؤثرات على الاول تجعله مصنفأ في هذا الإتجاه أو ذاك . و بهذا المعنى - كما يرى الكاتب - " لا يعود ابن سبأ هو الموضوع الذي يبحث فيه ،

^١ المكان نفسه

^٢ المكان نفسه . أنظر ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٤

^٣ المكان نفسه ص ٢٠٤

وانما هو الفاعل في المؤرخ و الباحث عنه ، فهو إذ يكتب عن ابن سبأ أو يفض النظر ، فإنما يفصح عن كينونته و جبلتها الانسانية ، عن حضورها الواقعي و مسارها الاجتماعي و يستنطق ذاته بالتالي ، وهل كنا نستطيع ان نعرف المؤرخ على حقيقته هذه لولا ابن سبأ ؟ فهو في الحديث عنه مصنف للمؤرخين و مختبر لامكاناتهم و مدى حضورهم في التاريخ نفسه " ^١ .

و من البديهي أن يوصله هذا المنطق الى التشكيك بالرواية " السبئية " اساساً أو رفضها ضمناً ، لاسيما و أن الطبري الذي اورد تفاصيلها حوى "تاريخه" العديد من الروايات المتناقضة و بينها هذه الرواية، بما انطوت عليه من نقاط ضعف واضحة . و يلامس الكاتب هنا المنهج الذي انضوت فيه كتابة التاريخ في ذلك الزمن ، باتخاذها وجهة معينة لعدة قرون ، واستمرارها على هذا النحو في معظم الدراسات الحديثة . ولكن تفسيره لأشكالية التراكم عند المؤرخ " الاسلامي " ، قد لا يكون مقنعاً من وجهة نظر البحث التاريخي الذي يُبنى على منطق الحدث ، وليس بترك المجال أمام القارئ " لاستخلاص النتيجة " ^٢ وفقاً لمنهج الطبري المعروف . ذلك أن مثل هذا التراكم الذي كان بعضه عشوائياً

^١ المرجع نفسه ص ٢٠٤

^٢ المرجع نفسه ٢٠٥

وربما الآخر مقصوداً ، أسهم في بلبلة هذا التاريخ ، وجعل كثيراً من أحداثه ملتبسة ، أو مزدوجة المغازي و الابعاد ، مما كرّس لاحقاً مبدأ التوليف و التسوية بين اسلام غير جذري ، وبين سلطة سياسة يترواح فيها و تقوده مصالحها . و الفتنة التي برز بين اركانها عبد الله بن سبأ ، ربما لم تكن في حجمها الذي بولغ فيه على الارض ، ولكنها تصبح اكثر نبضاً في روايات المؤرخين ، إذ تلقفوها - كما غيرها من الاحداث - بالخلفيه ذاتها التي دفعت بهم الى هذا المضمار ، وما توالد عنها من دوائر كبيرة و صغيرة ، جعلت صورتها التاريخية غائمة أو مشوشة .

وإذا كان الكاتب محمود لم يصل في بحثه الى نتائج ترضي المؤرخ بصدد الاشكالية السبئية ، فإن اثارته لهذا الموضوع من زاوية منهج التاريخ و فلسفته ، أمر جدير بالأهتمام و التنويه . فالمؤرخ إنما يعنيه النص بذاته و يؤثر الدوران فيه ، ناقداً و محللاً و مستخلصاً ، أكثر من الاستغراق في الجدل حوله ، وان كان على مسافة قريبة منه . و لكن هذا الكاتب - كما يتضح من دراسته - لم يكن هدفه التأريخ لابن سبأ ودوره في الفتنة الشهيرة ، بقدر ما توخى الوصول الى نظرية في التاريخ ، وهو امر حقق فيه بصورة ما نجاحاً ، وكان لابد في النتيجة أن يصب شيء من ذلك في جوهر الموضوع ، و أن تُحدث " المساءلات " هزة فيه ، مما

يعزز إعادة قراءته من خلال رؤية المؤرخ نفسه . قد يتجلى ذلك على الأقل في استنتاجه الأخير بصدد هذه المسألة :

"هكذا رأينا عبد الله بن سبأ ، حيث كانت حقيقته التاريخية معرّضة لأكثر من حالة نهب تاريخيه وإضاعة لمعاملها الفعلية و بعثرة لجغرافيتها الاجتماعية و التاريخية ، نظراً لتعرضها الكبير لرهانات مختلفة لا زالت تتصاعد و تتنامى و تتصارع تاريخياً في الواقع الراهن نفسه " ^١ .

^١ المرجع نفسه ص ٢٥٤

خاتمة

ناقشت فيما سلف أبرز الأفكار في موضوعة عبد الله بن سبأ ، وهي كما رأينا متفاوتة بين القطع بوجوده ، والتشكيك به ، و الرفض المطلق له . و لم يكن هذا التفاوت في الواقع الا نتيجة لتضارب المنهج الذي كان سردياً لدى الاتجاه الأول، فيما نزع الى التحليل و الاستدلال مع الاتجاه الثاني ، و تطرق نحو الاجتهاد الخاص غير المسوغ دائماً في ظل الاتجاه الثالث .

ولقد حاولت خلال دراستي لهذه القضية الشائكة ، التعامل معها بحيادية المؤرخ ، دون أن يأخذني عن سابق تصميم اتجاه ما الا ما كان يتقاطع بينه و بين ما وصلتُ اليه من استنتاجات نضج بها النص التاريخي دون غيره . ولعل النظره الدينية التي اقتبس اصحاب الاتجاه الأول كثيراً منها عن أسلافهم - ممن قرأوا التاريخ في رحاب " الحديث " و السيرة " - قد انعكست على مفاهيمهم التي ظلت خاضعة لها على مساحة النص

التاريخي ، مكتسباً الهالة نفسها ، وربما أكثر مما كان لدى الأوائل نحوه .
و لذلك فإن قراءة بعضهم لظاهرة السبئية لم تختلف عن تلك التي تناولت
القضايا الأخرى في التاريخ الاسلامي ، حيث كانت الرواية الواحدة -
و غالباً الأولى - تحفر لهم الطريق ، غير ملتفتين الى روايات أخرى قد
تنشر من الضوء ما ليس بإمكان " روايتهم " القيام به . ومن هنا جاء
تسليم هؤلاء المؤرخين بشخصية ابن سبأ وقبولهم لرواية سيف ، دوغما نقد
او مقارنة ، كنتيجة لهذا التفوق داخل منهاجهم الذي بقي جامداً و لم
تطرقة رياح المؤثرات العلمية الجديدة .

اما الاتجاه الثاني ، فكان لديه من المرونة ما جعله أكثر قدرة على
التوغل ليس فقط في ثنايا الرواية السبئية بل في تفاصيل المرحلة كاملة ،
رابطاً بدقة بين أجزائها ، و مدركاً في وعيه أبعادها ، و مقارباً بالتالي
منطق الاحداث فيها . ولعل خير من يمثله ، الكاتب الكبير طه حسين الذي
تناول شخصية ابن سبأ بذهنية المؤرخ اللّماح ، فلم يقع في شرك الرواية
مستسلماً لها ، و إنما لجأ الى تفكيكها و إخضاعها للنقد الهادئ ، قبل أن
يعيد جمع اطرافها و ينتهي أخيراً الى التشكيك بوجود هذه الشخصية التي
وصفها بـ " الطائفة " على المرحلة . وكان ذلك أقصى ما يمكن للمؤرخ
القيام به ، إذ ليس عليه اتخاذ قرار ما بشأن أيّ من الاحداث دون العودة

الى النص التاريخي الذي وحده يقرّر بعد دراسته ، مدى الواقعية التي ينطوي عليها ، وهي نسبية في شتى الاحوال .

وفي ضوء ذلك ، فإن المسألة لا تبقى محصورة بوجود ابن سبأ أو عدم وجوده ، لأن المؤرخ لا خيار له في النهاية سوى التعامل مع النص كأمر واقع ، بل تصبح في الدرجة الأولى محصورة بالدور الذي نُسب لهذا الرجل القيام به و مدى حجمة في المرحلة و تأثيره في تطوراتها . هذا ما تنبّه له طه حسين عندما رأى أن " الفتنة " نضجت في الامصار كنتيجة للسخط الذي عمّ فيها على سياسة الخليفة و عمّاله ، ولم تتأثر بعوامل " طارئة " دفع بها ذلك الرجل " الخارق " كما صورته الرواية المنسوبة لسيف بن عمر . فلم يتردد هذا الكاتب من حسم هذه المسألة قائلاً : "لست ادري أكان لابن سبأ خطر ايام عثمان أم لم يكن . و لكنني اقطع بأن خطره ، إن كان له خطريس ذا شأن ، وما كان المسلمون في عصر عثمان يعث بعقولهم و آرائهم و سلطانهم طارئ من أهل الكتاب أيام عثمان و لم يكذب يسلم حتى أنتدب لنشر الفتنة و إذاعة الكيد في جميع الاقطار " ^١ .

^١ طه حسين ، الفتنة الكبرى ص ١٣٢

وأما الاتجاه الثالث و الآخر فقد تراوح بين نظريتين : عبّر عن الأولى هشام جعيط من خلال دراسة معمقة لتفاصيل الفتنة ، واصفاً الرواية بأنها "تبيّه وتخطئ" و منتهياً الى وجوب " رفضها بشكل قاطع " ^١ . و الثانية عبّر عنها مرتضى العسكري الذي رأى في ابن سبأ مجرد اسطورة و شخصية مختلقة في الاساس . وهو - كما رأينا - منطلق من نظرية اجتهادية مسبقة الى هذه الشخصية. وليس من دراسة نقدية للرواية التاريخية التي تفردت بذكرها . أي أن هذا المؤرخ لم يعترف بالنص الذي اعتبره مدسوساً ، كما الشخصية نفسها ، لتشويه صورة التشيع والدور الذي اتخذه عليّ في الاحداث السابقة على اغتيال الخليفة عثمان .

ولسنا في النهاية متّوخين الدخول في جدلٍ قد ينتهي عقيماً في صدد هذه المسألة ، و لكننا و نحن نورخ من دون أية خلفية لابن سبأ ، لانجد فائدة في الخروج على النص التاريخي ، بل على العكس من ذلك علينا أن نفيح في أرجائه و نجوس كافة الأبعاد فيه ، ايجابيه كانت أم سلبية ، لتحقيق مقاربة ممكنه باتجاه الحقيقة التاريخية . وعندما يصبح التاريخ مأخوذاً بمنطق الحسم ، فينتظر الى رواية على أنها مقبولة بالمطلق و أخرى

^١ الفتنة ، جدلية الدين و السياسة ص ١٠٩

مرفوضة بالمطلق أيضاً ، فإنه يتحول حينئذٍ الى ساحة صراع دائم و لا يعود ثمة مجال امامها للبحث الموضوعي الهادئ .

و لا بد من العودة أخيراً الى ما سبق أن خلصنا اليه ، وهو المتعلق بالدور المنسوب الى ابن سبأ ، و ليس الى الشخصية ذاتها و ما نُسج حولها من قدرة فائقة . فهذا الدور كان هامشياً و لم يترك حتى بصمات خفيفة على مسار المرحلة ، و لم يُشكل بالتالي أية فاعلية في المنحى الذي أضلّ الكثير من المؤرخين ، فسَلّموا به كداعية أمسك في يده بزمام الحركة التي قامت بالثورة على الخليفة . و اذا كانت الرواية منطقية على نقاط ضعف بارزة ، من بينها تفرد الطبري بها شأن روايات أخرى ساقها هذا المؤرخ ليثبت سعة اطلاعة و شمولية " تاريخه " و موسوعيته ، فإن ذلك ليس كافياً لرفضها أو مقاطعتها و التأريخ للمرحلة بمعزل عنها .

إنه الدور - الاسطورة وما اكتنفه من تضليل و مبالغة ، أكثر من الرجل - الاسطورة الذي قد يكون مجرد تلفيق او لا يكون . فهو أقل حجماً من أن يرتقي الى الدور ، و الى مستوى أن يقود النخبة تحت قيادته .

المصادر و المراجع

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ . دار صادر - بيروت ١٩٧٩ .
- ابن خلدون : كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخير . مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٧١ .
- المقدمة: دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩
- ابن قتيبة : الإمامة و السياسة (يُنسب له) . المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة د. ت .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس . تحقيق عبد الله أنيس طباع. دار النشر للجامعيين - بيروت د. ت .
- ابن منظور : لسان العرب . دار صادر - بيروت . د. ت .
- خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط : تحقيق سهيل زكار . دمشق ١٩٦٨ .
- سيف بن عمر التميمي : الفتنة ووقعة الجمل . تصنيف احمد راتب عرموش دار النفائس - بيروت ١٩٧٢ .
- السيوطي : تاريخ الخلفاء . تحقيق محي الدين عبد الحميد . القاهرة . ١٩٦٩ .

- الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار
المعارف بمصر ١٩٦٧

- المسعودي : مروج الذهب و معادن الجواهر . تحقيق يوسف اسعد داتمر
. دار الأندلس بيروت ١٩٧٣ .

-ياقوت الحموي : معجم الأدباء . دار إحياء التراث العربي . بيروت د.
ت .

- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي . دار صادر - بيروت ١٩٦٠ .

- امين ، أحمد : فجر الاسلام . دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٩ .
ضحى الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦١ .

- جعيط ، هشام : الفتنة ، جدلية الدين و السياسة في الاسلام المبكر.
ترجمة خليل أحمد خليل - دار الطليعة بيروت د.ت .

- حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي و الديني و الثقافي
والاجتماعي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ .

- حسين ، طه : الفتنة الكبرى . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

- دوري ، عبد العزيز : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب . دار
المشرق - بيروت ١٩٨٣ .

- زكّار ، سهيل : التأريخ عند العرب . دار الفكر د. ت .

- شعبان ، محمد عبد الحفي : صدر الاسلام و الدولة الاموية . الدار الأهلية للنشر - بيروت ١٩٨٣ .
- شلبي ، احمد : موسوعة التاريخ الاسلامي . مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .
- عبد المقصود ، عبد الفتاح : الامام علي بن ابي طالب . منشورات مكتبة العرفان . بيروت د.ت .
- العسكري ، مرتضى : عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى . منشورات كلية أصول الدين - بغداد ١٩٦٨ .
- العقاد ، عباس محمود : عبقرية عثمان . المكتبة المصرية - صيدا . د.ت .
- عمارة ، محمد: الخلافة و نشأة الأحزاب الاسلامية . المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت ١٩٧٧ .
- فان فلوتن ، ج. : السيطرة العربية و التشيع و المعتقدات المهدية في ظل خلافة بني امية - ترجمة ابراهيم بيضون . دار النهضة العربية - بيروت ١٩٩٦ .
- فلهوزن ، ي . : الخوارج والشيعة . ترجمة عبد الرحمن بدوي . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ - تاريخ الدولة العربية . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ١٩٦٨ .

- لاكوست ، إيف ، العلامة ابن خلدون . ترجمة ميشال سليمان . دار

ابن خلدون ١٩٧٨

- لواساني ، احمد : نظرات في تاريخ الادب - بيروت ١٩٨١ .

- محمود ، ابراهيم : أئمة و سحرة ، البحث عن مسيلمة الكذاب و عبد

الله بن سبأ . منشورات رياض الريس ١٩٩٦

-مصطفى ، شاكر : التاريخ العربي و المؤرخون . دار العلم للملايين

بيروت - ١٩٧٨ .

كتب صدرت للمؤلف

- ١- تاريخ العرب السياسي ، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد ، دار الفكر بيروت ١٩٧٤ .
- ٢- التوابون . ط ١ - دار التراث الاسلامي ١٩٧٥ ط ٢ ، دار التعارف ١٩٨٠ .
- ٣- الدولة العربية في اسبانية ، من الفتح حتى سقوط الخلافة (٣ طبعات) دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٨ - ١٩٨٠ - ١٩٨٦ .
- ٤- من دولة عمر الى دولة عبد الملك ، دراسة في تكوّن الاتجاهات السياسية في القرن الاول الهجري . ط ١ دار النهضة العربية ١٩٧٩ ، ط ٢ دار إقرأ ١٩٨٦ ، ط ٣ دار النهضة العربية ١٩٩١ .
- ٥- الدولة الاموية و المعارضة ، مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فان فلوطن مع ترجمة له ، ط ١ دار الحداثة ١٩٨٠ ،

ط ٢ ، المؤسسة الجامعية لدراسات ١٩٨٥ ، ط ٣ . دار النهضة العربية
١٩٩٦ .

٦- الحجاز والدولة الاسلامية ، دراسة في اشكالية العلاقة في القرن الاول
المجري، ط ١ المؤسسة الجامعية ١٩٨٣ . ط ٢ دار النهضة العربية ١٩٩٥ .

٧- اتجاهات المعارضة في الكوفة ، دراسة في التكوين الاجتماعي
والسياسي . (٤١ - ٧١ هـ) معهد الإنماء العربي ١٩٨٦ .

٨- الأمراء الأمويون الشعراء في الاندلس ، دراسة في أدب السلطة . دار
النهضة العربية ١٩٨٧ .

٩- مؤتمر الجاييه ط ١ دار اقرأ ١٩٨٨ . ط ٢ دار النهضة العربية ١٩٩٦ .

١٠- الأنصار و الرسول ، اشكاليات الهجرة و المعارضة في الدولة
الاسلامية الاولى ، معهد الانماء العربي ١٩٨٩ .

١١- مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية . دار المؤرخ العربي
١٩٩٥ .

١٢- بلاد الشام ، اشكاليات الموقع و الدور في العصور الاسلامية . دار
المنتخب ١٩٩٦ .

١٣- عبد الله بن سبأ ، اشكالية النص و الدور الاسطورية . دار المؤرخ
العربي ١٩٩٧ .

١٤ - الإمام علي ، في رؤية "المنهج" و رواية التاريخ _ (يصدر قريباً)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٤
مقدمة	٥
القسم الاول : عبد الله بن سبأ الحدث و الدلالة	١٣
١ - الاسرائيليات	١٤
٢ - من هو عبد الله بن سبأ	٢٣
القسم الثاني : عبد الله بن سبأ في الدراسات الحديثة والمعاصرة ..	٤٥
مدخل	٤٦
١ - المنحازون الى الرواية	٤٩
أ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي	٤٩
ب - أحمد أمين : فجر الاسلام - ضحى الاسلام	٥٣
ج - أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي	٥٨
د - عبد الفتاح عبد المقصود : الامام علي بن أبي طالب	٦٤
هـ - عباس محمود العقاد : عبقرية عثمان	٦٩
و - فلهوزن و فان فلوتن	٧٤

٧٨ ٢ - المشككون

٧٨ أ - طه حسين : الفتنة الكبرى

٨٨ ب - محمد عمارة : الخلاف و نشأة الأحزاب الاسلامية

٩٤ ٣ - الرافضون

٩٤ أ - محمد عبد الحى شعبان و هشام جعيط

٩٥ ب - أحمد اللواساني : نظرات في تاريخ الادب

٩٩ ج - مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ و أساطير أخرى.....

د - ابراهيم محمود : أئمة و سحرة ، البحث عن مسيلمة الكذاب

١٠٣ و عبد الله بن سبأ

١١٤ خاتمة

١١٩ المصادر و المراجع

١٢٣ كتب صدرت للمؤلف

١٢٥ فهرس الموضوعات